NARDEEN ABU NABAA

رواية
Novel

نردين أبو نبعة

ليالي إشبيلية

مكتبة نوميديا

مكتبة الرموز العربية

ليالي إشبيلية

اسم الكتاب : ليالي إشبيلية
تـــأليف : نردين أبو نبعة
القيـــــاس : ١٤x٢٠ سم
عدد الصفحات : ٢١٨ صفحة

الطبعة الأولى
1444هـ - 2023 م

وكيل التوزيع في جميع أنحاء العالم

دار الرموز العربية

دار الرمـوز العربيـة للنـشر والتوزيـع
عنوان المكتبة : تركيا - بورصة - تشارشمبا - جانب مجمع الحاج
+90 534 918 32 93
rumuzegitim16@gmail.com
مؤسسة ومكتبة الرموز العربية

نردين ابو نبعة

ليالي إشبيلية

2023

إلى

أبو مدين الغوث التلمساني

الإهداء

إلى أغلى ما ضم قلبي
إلى أولادي
عبدالله وبشرى

حارة المغاربة

10-حزيران-1967

إنها الساعة الحادية عشرة ليلاً.. منذ هذه اللحظة سيتغير كل شيء!!

ثقل الهواء لدرجة أنه استعصى على الشَّمّ وملء الصدر!!

بدت السماء غير السماء.. فالسماء الحالكة الظلمة بدت برتقالية متوهجة.. حامية لاسعة، وكأن الشمس تتوسطها وتدنو من رؤوس العباد لتغرقهم في عرقهم من رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم..

والأرض بدت وكأنها غير الأرض.. بدت وكأنها فُرش تُسرق من تحت أرجلهم.. فيموج الناس ويتعثرون ببعضهم.. يسقطون.. تحرقهم الأخاديد!!

هرج ومرج.. دموع وقهر وصخب.. الرصاص يهطل كالمطر.. الأرض تتزلزل وتخرج أثقالها.. مكبرات الصوت تصدح في الأرجاء:

«اخرجوا من الحارة.. وإلا ستهدم فوق رؤوسكم.. معكم مهلة ربع ساعة!

من يستطيع أن يخرج ولا تخرج روحه نتفًا معه؟

كيف سينام الناس بعد هذا التهجير؟

كيف يستطيع أن ينام من به نار القهر تلفح.. من يقدر أن يشرح القرح ولا يدمع؟

كيف ستتركهم العتبات التي تتعلق بأذيالهم؟ ماذا ستهمس لهم الشبابيك؟

أصوات الجرافات تقترب.. عساكر.. ضباط ومقاولون صهاينة يملؤون المكان.. يقتلعونهم كما يقتلعون الشجر.. تُفتّت أرواحهم كما يُفتّت الحجر..

يُرحّلون..

هل يلتفتون إلى الوراء؟

أي يد تستطيع التلويح مودّعة؟!

لم يودّعوا أشتال زرعهم.. زيتونهم وصُبّارهم.. رمّانهم وليمونهم.. يتركون كل شيء.. يتركون الحارة التي بنَوها حجرًا حجرًا.. الحارة التي تضم مئة وخمسين عائلة.. يعيشون في منازل متلاصقة كتفًا على كتف.. الحارة ذات المداخل الصغيرة والجدران السميكة التي يفصل بينها ممرات مبلطة وضيّقة.. تفوح منها رائحة الكسكس المغربي والعصبان.. ورائحة الخبز الطازج من الفرن الوحيد الذي يأتي إليه الناس من كل الحارات المجاورة..

من يشتري حزنهم؟

من يزن مصيبتهم؟

من يلقي عليهم عباءة تستر انكسارهم؟

من يلومهم إذا جُنّوا؛ فقد تركوا حارتهم.. الحارة الوحيدة الأقرب للمسجد الأقصى والملاصقة لحائط البراق.. إنها حارة المغاربة.. الحارة التي تشبه أيدٍ تحوط بعضها وتقف خاشعة للصلاة..

إنها حارة المغاربة.. التي عُجن ترابها بخطوات أقدام الأنبياء وصلواتهم..

تُجرّف منازلهم بكل ما فيها.. كثيرون لم يسمعوا نداء الإخلاء فهُدمت البيوت فوق رؤوسهم، وتم انتشال جثثهم بعد ذلك منهم امرأة صمّاء!!

يُرحّلون..

فيطفو صوت صلاح الدين الأيوبي وهو يخطب في المغاربة الذين شاركوه الفتح قائلاً:

«أسكنتُ هنا من يثبتون في البحر ويبطشون في البر، وخير من يؤتمنون على المسجد الأقصى والمدينة المقدسة»

يُرحّلون..

فيسمعون صوت الصحابي الذي قال «ليتني كنت تبنة في لبنة من بيت من بيوت بيت المقدس»

يُرحّلون..

يتركون النخلة الوحيدة التي تقف كمئذنة قرب منزل أبو نُصير.. تلك النخلة التي رافق سعفها كل الموتى والشهداء إلى قبورهم؛ حيث كان أهل البلدة القديمة وسلوان عندما يمرون بجنائزهم يأخذون من سعفها ليزرعوه فوق قبور أحبتهم..

ببطء وبخيبة كبيرة.. يخرج أبو نصير وكل العائلات التي وُقفت هذه الحارة لهم من قبل الملك الأفضل ابن صلاح الدين.. يحدق نصير فيهم ويراقب ظهر والده المحني قهرًا.. وعيناه اللتان تحولتا لبركة دم حمراء.. وقدماه اللتان تركلان العجز والوجع..

يمشون وراء بعضهم.. لا أصوات تُسمع سوى أصوات أقدام المهجرين..

أخذ نُصير يراقب العيون وهي تشرد جنوبًا فترى سور القدس وباب

المغاربة.. وتتطلع شرقًا.. فترى الزاوية الفخرية والمسجد الأقصى.. يتابع الأقدام المتعبة المنهكة التي تجرجر خطوات عمرها ثمانئة عام !!

كانت الجموع تتدفق مطرقة واجمة.. كان بإمكان نُصير أن يلحظ العيون المغبشة بالدموع وهي تسترق النظرة الأخيرة شمالاً صوب المدرسة التنكزية وقنطرة أم البنات وغربًا صوب حارة الشرف..

الساعة الآن الثالثة فجرًا.. صباح يوم السبت العاشر من حزيران.. الحارة سُوِّيت بالأرض!!

ذابت المعالم تمامًا.. فلا أعمدة ولا سقوف ولا بيوت.. لا أصوات ولا أشجار.. لا مساجد ولا مدارس ولا مقامات.. الثلاثة آلاف فلسطيني طُردوا لتتحول حارة المغاربة إلى ساحة المبكى..

العيون شاردة والألسن ثقيلة خرساء والعقول وُضعت في الأكُفّ..

***

في بيتهم في الحارة كان نصير يعلق قفطانًا حريريًاً أخضر خاطه أبوه له في العيد.. وكان يحتفظ بعلبة نحاسية فيها العديد من صور أجداده المغاربة الذين يلبسون قفاطين جميلة.. وكان أكثر ما يعزّ عليه في هذه العلبة (البيناك) تلك الكرات الزجاجية الصغيرة الملونة والمزخرفة بألوان زاهية والتي كان يلعب بها مع رفاقه في ساحات المسجد الأقصى.. حيث يحفر حفرة صغيرة مخصصة للعب، ويرمي كرته باتجاه كرة صديقه ليصيبها ويدخلها في الحفرة المخصصة.. فإن نجح في ذلك كسب كرة صديقه..

كانت العلبة تحوي عشرات الكرات الزجاجية الملونة التي كسبها من اللعب.. لكن كانت هناك واحدة مختلفة كثيرًا عن كل الكرات.. إنها كرة مزخرفة باللون الأزرق أهداها له جده لأبيه زين العابدين المؤتمن

على سجلات المحاكم الشرعية في القدس.. جده الذي قُطعت يده في معركة مع الإنجليز ؟؟

قال له جده :

احتفظ بهذه الكرة.. عليك أن تورثها لأولادك وأولادك لأولادهم.. فهي الكرة الوحيدة الباقية منذ ثمانمئة عام.

***

..

يسأل نُصير أباه فيما الناس ساهمة واجمة..

كم مكث الصليبيون في القدس يا أبي ؟

«ما يقارب من تسعين عامًا»

حينها بدا الناس وكأنهم صحوا من سكرتهم.. تلاقت نظراتهم.. سرى بينهم رغم الأسى ارتياح عجيب بعد سؤال نصير وإجابة والده.. شعروا بأنهم عاشوا لحظة الاحتلال الصليبي عشرات المرات..

يغفو نُصير قليلاً.. ثم يصحو وكأن أحدًا أيقظه.. يصرخ ممسكًا بيد والده غارسًا أظافره فيها:

«لن يأخذوا ألعابي.. لن أدعهم يأخذوا ألعابي..»

يغافل نصير والده.. يتسلل رويدًا رويدًا.. يقرر أن يعود للحارة ليحصل على صندوقه النحاسي الصغير.. يفكر في كل العواقب.. ثم يقرر أن يركض بكل ما أوتي من قوة.. فالأمر يستحق!!

نجح نصير ابن الثالثة عشرة في التسلل صوب الدار المهدومة على حين غفلة من الجميع.. دنا على مهل.. نبش الركام.. التقط علبته النحاسية الملأى بالكرات الزجاجية.. تطلع إلى الجدران المهدومة.. رأى مخطوطًا مطمورًا.. تتدلى أوراقه من بين الأحجار.. استخرج

المخطوط برفق.. ثم ركض مسرعًا صوب الجموع المهجرة ليلحق بها..

كان الأب يصك على أسنانه متطلعًا صوب الحارة.. كاد يُجنّ.. وفجأة ظهر نُصير قادمًا حاملاً علبته والمخطوط.. فانهال الأب عليه ضربًا مع أنه لم يسبق له أن ضربه قبل ذلك!!

سالت دموع نصير واحمرت أذناه..

نظر الأب طويلاً لنصير ثم غمره بالقبلات على خديه وصاح:

«لقد كنتُ خائفًا عليك»

يمسك الأب المخطوط يقلّبه.. يقرأ عنوانه بصوت عالٍ (ليالي إشبيلية) ليونس الإشبيلي

يقترب نصير من والده.. يهمس في أذنه:

أريد أن أقرأ يا أبي..

طوال فترة ما بعد الفجر.. وحتى غروب الشمس لم يستطع نُصير أن يرفع عينيه عن المخطوط.. يحضن المخطوط بكلتا يديه.. بدا مندمجًا فيه بشكل غريب.. كيف لا وقد أخذه إلى عوالم وحكايات.. فقد شارك بطله في مغامرات الهرب من إشبيلية إلى فاس.. تبعه إلى مكة.. أحب الشيخ ابن حرزهم وجلس في مجالس عبد القادر الجيلاني في بغداد..

قضى اليوم بطوله وهو يقرأ ويقلب صفحات المخطوط..

بدأت الجموع المهجَّرة تلتف حول نُصير وأبيه..

وقف نصير يقرأ وكأن بيده ميكرفونًا ويقف على خشبة مسرح:

«ها أنا أنتهي من كتابة قصتي على هذه الأوراق المفروطة.. أتنفس بعمق كما لم أتنفس من قبل.. أستنشق هواءً مفعمًا بالعزة والنصر..»

أسند رأسي على جدار حائط البراق.. الحائط الذي ربط رسول الله دابته به.. ثم عُرِج به إلى السموات العُلا..

أشعر بارتياح كبير لسببين.. أولهما أنني أنهيت كتابة المخطوط، وثانيًا لأنني أنهيته قبل أن تُقطع يدي، ولم يبق إلا أن أكتب الصفحة الأخيرة.. وهذه الصفحة سأمليها على ابني ليكتبها، وأوصيته أن يحفظ المخطوط كما يحفظ الإيمان في قلبه.. وأن يورِّثه لأبنائه وأبناء أبنائه ما تناسلوا وتعاقبوا؛ حتى تبقى سيرة الأندلسيين والمغاربة محفوظة في الذاكرة..

لقد كان المخطوط يسافر معي أينما سافرت.. ويحُطُّ رحاله معي أينما نزلت.. في كل سفر أُضيف إليه عدة وُرَيقات وأخيطه بأفضل الخيوط حتى لا ينفرط، لكنني لم أغلِّفه؛ لأنني ما تعلمت تغليف الكتب وتجليدها.. لقد تركت ذلك لكم يا أولادي..

لم أكن أتخيل أن يمد الله في عمري لأكتب الوريقات الأخيرة في بيت المقدس وفي يوم الفتح الأعظم وفي حضرة مولانا صلاح الدين الأيوبي..

يونس الإشبيلي

***

كان عليهم في تلك الليلة أن يناموا في العراء.. كان الرجال صامتين يكتمون ما بهم.. لم يتفوهوا إلا كلمات قليلة متباعدة.. بدت رقابهم متدلية بلا قرار.. وشفاههم يابسة مشققة وجلودهم منكمشة..

أخذ نُصير يسترسل في قراءة المخطوط.. وكلما قرأ أكثر وأكثر.. تحولت الوجوه المكفهرة المذعورة لوجوه راضية مستبشرة..!!

كان يعرف ما يدور في أذهانهم.. كان يدرك أن هذا المخطوط

بُعث لهم ليجرف أحزانهم.. لقد أضحى للحزن معنى واحد.. إنه المقاومة..

لقد بدا المخطوط حلاً للغز الاحتلال.. لقد جعلهم يعيشون في زمان يشبه في قسوته زمانهم..

فصار التهجير على قسوته.. أكثر احتمالاً وأخف وطأة..

حتى نصير عندما خرج من حارته.. شعر أنه لن يعود إليها.. لكنه كلما أبحر في المخطوط تيقن من العودة..

لم يمر وقت طويل حتى أنهى نصير قراءة المخطوط كاملاً على مسامع المهجرين قبل أن يتفرقوا في الأرجاء..

كانت بعض الأوراق مصفرة وبعض الكلمات باهتة.. وبعض الحروف متآكلة.. لكنه رغم كل ذلك استطاع القراءة.. وما صعب عليه كان يساعده فيه والده.

هذا المخطوط كان له الفضل في ميلاد مشاعر جديدة لدى المهجرين.. مشاعر غريبة تستعصي على الفهم.. مشاعر تجمع بين قسوة النكبات المتتالية والاستعداد للعودة والنصر..

يقرأ نصير تارة.. ويكمل الأب تارة أخرى.. فيتيح ذلك لنصير التأمل فيما يقرأه أبوه..

يهمس نصير لأبيه:

أيعقل هذا الشبه بين جدي الذي قُطعت يده وبين يونس الإشبيلي الذي قُطعت يده أيضًا؟

أي رابط يربط بين أبطال الرواية وأبطال حارة المغاربة..؟

هل علينا أن نمشي ذات الخطوات التي مشاها أجدادنا لنعود إلى القدس؟

أحسّ نصير أن عليه أن يقرأ الرواية مرارًا وتكرارًا؛ ليكتشف متى تكون الهزيمة وكيف يكون النصر..

ربما كان أكثر ما يحتاجه الناس في تلك اللحظات هو رائحة تلك الكلمات المنبعثة من المخطوط.. رائحة أنعشت أرواحهم.. تلك الكلمات كانت شفاء.. وليست مجرد مهدّىء للألم..

شعروا بأن الله أرسل لهم هذا المخطوط في هذا الوقت بالذات كإشارة تقول.. بأن الأرض تكفر بالغزاة ويؤمن الزيتون بمن زرعه.!!.

مخطوط

«ليالي إشبيلية»

«جعل الله قلوب أهل الدنيا محلاً للغفلة والوسواس»
أبو مدين الغوث

في ذلك اليوم استيقظت أمي فزعة.. تصطك أسنانها بردًا وهلعًا؛ فقد رأت فيما يرى النائم أن عمامة أبي قد انحلت.. كان يركض وراءها يحاول أن يلمها، لكنه لم يقدر فقد تدحرجت بعيدًا عنه.. لكن رغم ذلك فقد بدا وجهه بالغ الحُسن والجمال، وعيناه واسعتان كما لم ترهما من قبل.. كان إخوتي نيامًا حولها وضوء النهار لم ينسلّ من قماشة الليل بعد.. فتحت الطاقة التي تطل على الشارع ووضعت يدها على بطنها المتكور وأخذت تبكي وتبكي عندما رأت المصلين يخرجون من المسجد ولم تلمح بينهم أبي فقد طال غيابه!!

لكنها قامت ومسحت دموعها وبدت أقوى من ذي قبل وكأن الدموع تغسل وجع الروح فيغدو الوجع خفيفًا محتملاً بعدما كان ثقيلاً جاثمًا على الصدر..

تحاملت على نفسها وذهبت فتوضأت وصلت ودعت الله.. لفَّت جسدها بشال صوفيٍّ وظلت متسمرة تنظر من الطاقة علها تلمح طيف أبي.

في ذلك اليوم ولدت.. وكنتُ الابن الأخير لأمي التي ولدت قبلي خمسة من الأبناء لم يكن بينهن فتاة واحدة!! فقد ولدت أنا يونس بن الحسين الأشبيلي في إشبيلية في ليلة 27 رجب، ولم أكن أعلم أن مصيري يشبه مصير البلاد التي ولدت فيها.. أبصرتُ النور،

وقد انحلت أطراف العمامة وما عاد هنالك من يلُمّها على رأس الأندلس الحزينة.. وما عاد هناك إمام ولا مؤتمّون!! وانحلت عمامة بيتنا بمقتل أبي قبل يوم واحد من موت أمي وهي تلدني..

في أحشائها كنتُ كمحارة في جوف البحر.. أسمع كل ما يضج به البحر حولي! أسمعها تعلم الصبيان والفتيات الصغيرات اللغة العربية فإذا ما أتقنوها علمتهم القرآن الكريم على عكس ما كان يحدث في بلاد المشرق العربي حيث كان يحفظ الصبية القرآن الكريم أولاً ثم يتقنون اللغة العربية..

ولم تكن أمي تترك تعليم الصبيان حتى تتبقّل وجوههم؛ حينها تعهد بهم إلى شيوخ يعلمونهم وتستقبل أعدادًا أخرى من الصبيان وتبدأ في تعليمهم من جديد..

كنتُ أشعر بيدها البيضاء الناعمة وهي تمسد على بطنها المنتفخ وترتل بصوتها القرآن وترنم به.. ويبدو أنني في محارتي كنتُ أهدأ عن الركل والرفس والصخب بمجرد سماعي لصوتها الدافئ الحنون وهي ترتل.. ويبدو أن هذا الصوت هو الذي جعلني أعشق القرآن وتعلم تفسيره وعلومه، وهذا الصوت هو الذي دثرني وزملني عندما فررتُ هاربًا من إشبيلية!!

كنتُ أستضيء بنور قنديلها الذي تعلقه على باب دارنا إشارة لحفظها القرآن الكريم كما كانت تفعل نساء إشبيلية في ذلك الزمان..

ولقد تأكد لي أن الكثير من الأشعار التي أكتبها الآن ما هي إلا صدى للأشعار التي كانت تتغنى بها بصوتها العذب.

مـــتى يا كـرام الحي عـــيني تراكم
وأســـمـع مـن تلك الديـار نداكـم

ويجمعنا الدهر الـذي حـال بيننا..... ويحظى بكم قلبي وعيني تراكم

سـقاني الهوى كأسًـا من الحب صافيًا..... فيا ليته لما سـقاني سقاكم

***

صرخت صرختي الأولى بينما لفظت أمي نفسها الأخير..

وقد حاولت القابلة جهدها كي تنقذ أمي.. لكن تملكها الرعب.. فقد انقضى وقت طويل وهي تحاول جاهدة إخراج المشيمة العالقة.. لم تترك وسيلة تعلمتها أو استخدمتها سابقًا إلا وجربتها.. فأدخلت القابلة أنبوبًا من قصب يوصل بخار الأعشاب إلى فم الرحم حتى تُخرج المشيمة المحتبسة لكن المشيمة ظلت عالقة..!!

ظل طيف أمي الزائغة العينين ماثلاً أمام عين القابلة وهي توصيها بالصغير الوليد..

وكان أول ما سمعته أذني في هذه الدنيا..

«مسكين هذا الصبي.. فقد أمه وأباه في يوم واحد!»

حملتني القابلة وغسّلتني ولفّتني بالقماط وضمتني ضمَّة الأمِّ الأولى وعاهدت نفسها وهي التي كبرت سنُّها أن أكون آخر مولود أولد على يدها.. تأملتني طويلاً وكبّرت وأذّنت في أذني، ثم أخذت تمسح بيدها على ملامح وجهي ورأسي وتقول للنسوة اللواتي توافدن على البيت المنكوب:

«لقد أخذ بياض أمِّه المشرَّب بالحمرة وجبينها الواسع وزرقة عينيها..»

أمسكت القابلة بأصابع يدي الطويلة وتنبأت بطول قامتي الذي

يشبه طول قامة أبي.. ومسَّدت على شعري وهي تلهج بالدعاء لأبي الفقيه العالم ذي الشعر الكستنائي المسترسل، والذي أخذ على عاتقه جمع كلمة المسلمين والإصلاح بينهم..

وعاهدت نفسها أن تتفرغ لتربيتي والاعتناء بي.. وفعلاً أخذتني لبيتها.. فتارة تنثر الملح على جسدي حتى يصلب وتجفَّ رطوبته.. وتارة تفرك جسمي بالريحان والحِنّاء ثم تشطفه بالماء الفاتر وأحيانًا تستبدل الحناء والريحان بدهن حب البلوط..

وكم شعرت بطعم الملح في فمي قبل أن يجري على جسدي.. ويبدو أن هذا الطعم سيلازمني طويلاً في حياتي القادمة..

ومع عناية أمي الثانية بجسدي لم تنس أن تعتني بروحي.. فكثيرًا ما كانت تقرأ القرآن على رأسي وتدعو لي أن يجعلني الله من حفظة كتابه.. وكثيرًا ما كانت تكرر هذه الكلمات التي لم أكن أعرف كنهها آنذاك:

«فليمهِّد الله لك الطريق لمعرفته يا بني.. فالسعادة الحقيقية هي بالقرب من الله ولن تقترب منه إلا إذا أحببته ولن تحبَّه إلا إذا عرفته.. ولن تعرفه إلا بالعلم».

***

وبعد ميلادي بأيام قليلة.. لم تكد أمي الثانية تنتهي من تمليحي وتغسيلي وإرضاعي حتى اعتلى خطباء المساجد في إشبيلية المنابر.. كل منهم لديه أمر بأن يهجو ويشتم الممالك الإسلامية الأخرى في مالقة وغرناطة وسرقسطة وبطليموس بدلاً من أن يعمَّ الحزن والحداد على سقوط طليطلة.. وكان هذا هو عنوان تلك الفترة من عمر الأندلس!!

ليالٍ طويلة وعصيبة مرّت على الأهالي في إشبيلية كافة.. في الليل والنهار لا حديث للناس إلا عن سقوط طليطلة.. وجع عاجز ينخر إشبيلية من نهر الوادي الكبير إلى القصبة، ومن البحر إلى جبل الشّرف.. ومن جبال الأركوقاديس شرقًا إلى وادي آنا غربًا.. بدا النهر الذي يشبه دجلة والفرات في عظمته كسيرًا.. وأخذت الأشجار تتعرى من أوراقها حزنًا وكمدًا، وتصفرُّ الوجوه ترقبًا.. يموت الكلام في الحناجر ويتسيَّد الصمت الملوَّن بالدمع ويغزو القهر والعجز الأرواح.. كان خبر سقوط طليطلة قد كشف السوءات.. وكان غدر الإخوة أشدّ إيلامًا من أنياب الذئب المنغرزة في الجسد الأندلسي، وغدت الأيام حُبلى بالمزيد من الكوارث والسقوط المتوالي!!

كنتُ وليدًا في ذلك اليوم وقد حملتني أمي الثانية إلى أبي إدريس لختاني.. وفي طريقها.. كانت الأزقّة تغلي كمِرجل..

والأصوات تتعالى في الأزقة والأسواق.. البعض يقول:

«لنجهز رقابنا لسيوف القشتاليين فالمسألة مسألة وقت فقط.. إنهم قادمون إلينا لا محالة..»

وقال آخرون:

«لن يفعلوا ذلك.. فالسلطان وقّع معاهدة سرّيّة مع ألفونسو ملك قشتالة تنص على مساعدته لنا مقابل أن يغض الطرف عن احتلال طليطلة ويتركها للقشتالين، ولا يمكن أن يساعدنا ويهجم علينا في ذات الوقت!!»

يبصق أحدهم عندما يسمع هذا الكلام ويقول غاضبًا:

«إنها ليست معاهدة.. إنها تسليم وركوع وذل.. هذه المعاهدة تتيح الفرصة لألفونسو حتى يتجهز ويحضر نفسه للانقضاض علينا!!

بئس الملك وبئست الرعية الخانعة.. فكيف يرضى السلطان بأن يصمت على قتل إخوانه أمام عينيه؟

.. كيف يحارب إخوة الدين والدم؟

كيف انقلب الحال وصرنا نقاتل بعضنا بدل أن نقاتل عدوًّنا؟!!

ياويح قلبي على إخوة كنا نظنهم الجذع الذي نستند إليه فإذا هم الحصاة.. كانوا ضمّاد الجرح وغدوا اليوم هم الرماة!!»

برَّر أحدهم الأمر قائلاً وهو يضرب كفّاً بكفّ:

«لا يكفي أن تكون عملاقًا.. فأن تكون عملاقًا وحيدًا وسط الأقزام لا يقدم ولا يؤخر، والسلطان لن يستطيع أن يفعل شيئًا أمام انبطاح الممالك الإسلامية للقشتاليين.. فالعملقة وسط الأقزام مهلكة والسلطان له عين ثالثة يرى بها ما لا نرى!!»

- قال آخر:

«إنه خائن لله ولرسوله.. ومن شابه أباه فما ظلم.. لقد دخل إلى الوكر الذي دخل إليه والده المعتضد وانزلقت قدمه إلى جهنم بفعله هذا.. صدقوني أيامه معدودة.. هذا هو مهلكه حيث يظن أنها النجاة!!

ألا تذكرون المعتضد الذي دعا أمراء رُندة وأركش ومورو وهيّأ لهم مجلس الطعام المليء بالحار والبارد والحلو والحامض، وقدم لهم الثريد المطبوخ مع لحم الضأن، ونثر أمامهم الثمار المجففة من خوخ وتين ومشمش وعنب، ولم يكادوا ينتهون من الأكل حتى سارع لهم بحلوى الأرز المطبوخ بالسكر والزبد وورق الليمون..

وبعد أن انتهوا.. نقلهم إلى مجلس التطييب المطلّ على نهر الوادي الكبير، وجال عليهم الغلمان بالمجامر الفضّية البديعة التي يفوح

منها العود الهندي، ثم ندى ثيابهم بماء الورد الجوري المملوء في أواني البلور القيشاني المحفّر..

وما أن نفد ماء الورد حتى أعطى الإشارة لجنوده بوضع الأغلال في أيدي الأمراء وقطع رؤوسهم؛ فقد كان يطمع في ضم ممالكهم لمملكة إشبيلية!!

وجيَّش الجيوش، واستعان بالجنود والمرتزقة الذين هيّأهم ألفونسو السادس له، واستولى على مدنهم مقابل أن يدفع لألفونسو الجزية..

ثم عاد إلى إشبيلية فحنَّط رؤوس الأمراء وعلقها في حديقة قصره، وكان لا يهنأ له طعام ولا شراب ولا أُنس إلا في تلك الحديقة المليئة بالرؤوس المحنطة!!»

اختلطت الأصوات بعضها ببعض، لكن أعلاها كان صوت لشاب صغير لا يتجاوز الخامسة عشرة قال:

«يظنون أن الناس تنسى الأسى.. لا والله.. فأبي وجدي حكيا لي الحكاية.. وأنا الآن أستطيع أن أعيدها وكأنها حصلت أمامي مع أن أكثركم قد يقول متعجبًا هذا شاب صغير فكيف يعرف هذه الأخبار؟

لقد سمعت جدي يعلق على المجزرة التي قام بها المعتضد قائلاً:

كان صلبًا جافًا كغصن انقطع عن أصله.. يتشقق حسدًا وكمدًا ويتمنى لو يقتل كل ملوك الممالك الإسلامية المجاورة..

لا يزن الدم في ميزانه ولا يقيم للأقارب والأرحام بالاً.. يقتل بيديه كل من يشك في خيانته ولو كان ابنه وقد فعلها وقتل ابنه عندما علم بتدبيره لانقلاب عليه..

كان ودودًا سهلاً ليِّنًا مطأطئ الرأس مع ملك قشتالة.. يكتب

المعاهدات ويعقد الاتفاقيات ويستنصره عندما يشعر بخطر مزعوم من جيرانه المسلمين ويدفع له الجزية.. إن السلطان يعيد سيرة أبيه».

مالت الشمس نحو الغروب والناس مايزالون يشرّقون ويغرّبون في الكلام.. يجمعون ما يتسرب إليهم من معلومات وحقائق.. يحللونها ويقارنون بينها ويتوصلون لعدة خيارات ونتائج متوقعة.. ولم تكن التوقعات تشير إلى خير أبدًا!!

تفرقت الجموع وذهب كلٌّ إلى طريقه وترسخ في عقول الناس أن أيام السلطان معدودة لا محالة!!

***

في الليلة التي سبقت ميلادي ومن محارتي رأيت أمي وهي تعدُّ الأطعمة والأشربة لأبي الذي قد يعود في أي لحظة من سفره، غير أنها كانت مهمومة متكدِّرة.. تعصب رأسها بعصابة من كثرة التفكير.. كانت الأفكار كالريح الغضوب تهبّ فتعفِّر الروح..

كانت أمي تخاف على أبي لأنه يعمل في بلاط الملك ولا يهادنه! حيث كان البلاط يمتلئ بالزنادقة الذين يرتدون عمامة الفقهاء.. والخونة الذين يتكلمون بلسان الغيورين على الأمة والدين والجهال المنتفعين الذين نصبوا أنفسهم مستشارين.. وحيث قول الحق زلة لا تُغتفر والصمت كفر وسيِّد الخطاب هو الطبل والزَّمر والمدح..

كانت أمي تستعيد كلام أبي فيزداد خوفها ورعبها على مصيره:

«يا مليكة.. الرويبضة يتسلمون زمام الأمور والسهام طائشة فليس هناك رام خبير وشملنا تفرَّق كريش عبثت به الريح..»

كنتُ أسمعه في محارتي يرتل قوله تعالى:

﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾

يتحشرج صوته وهو يردد: إنهم لا يريدون إلا الحياة الدنيا..

الحياة الدنيا قافية قصائدهم ورنين ألحانهم وغاية أملهم.. هي منتهى أمانيهم»

قالت له أمي:

«إياك أن تفعل

أطلق يدك من قيدها

لا تجعلها ذخيرتك لأنها ستخونك

أفِق

فخدها وإن بدا ناعمًا.. فهو المنزلق، وكفُّها وإن بدا دافئًا ففي أعقابه البرد..

لا تبايعها..

فجذر الخسارات أن تبايع من لا يستحق!!»

***

ومضى أبي بعدما سمع كلام أمي.. وخرج من بلاط السلطان.. عازمًا أن يتخلى عن كل الامتيازات الممنوحة له مقابل أن يقدم تنازلاً ولو بسيطًا.. أو فتوى تريح الملك وتبرر له ظلمه وعقده الاتفاقيات والمعاهدات مع ملك قشتالة ضد إخوانه ملوك الممالك الإسلامية المجاورة..

عندما سقطت طليطلة خرج أبي ليطوف الأندلس.. شرقًا وغربًا.. طولاً وعرضًا.. واضعًا نصب عينيه هدفًا واحدًا وهو أن يؤلف قلوب ملوك المسلمين المتناحرين ويجمع كلمتهم ويردّهم إلى الكف كأصابع اليد الواحدة.. فرحل إلى بطليموس وبلنسية وسرقسطة وغرناطة.. وهاله أنهم قد فعلوا فعلة سلطان إشبيلية.. وعقدوا معاهدات حماية،

أهم بنودها أن يقدم ملك قشتالة الحماية لهم من إخوتهم مقابل أن يدفعوا له الجزية!!

كانت الممالك الإسلامية تلقى أبي بالودِّ والترحاب، وعندما يدير ظهره يُلقون عليه الماء البارد ولا يقيمون لكلامه وزنا!!

ويبدو أن هناك من لا يعجبه أن تجتمع كلمة الممالك الإسلامية المتناحرة فترصد لأبي في طريق عودته إلى إشبيلية فقطع رأسه ومثّل به ووضعه على باب دارنا.. وطرق الطارق الباب لتأتي أمي بلهفتها وتفتح الباب فتجد رأس أبي معلقاًعلى سيفه!

صرخت أمي كالمسوسة.. خرجت تركض من زقاق إلى آخر وكأنها خارجة من قبر.. تقع ثم تقف.. لم يخرج صوتها فالكلمات تتعثر كما تتعثر أقدامها التي لم تعد تحملها وجنينها.. تخنقها الدموع ثم تسيل فجأة.. ثم تصرخ حتى تفقد صوتها..

«يا أهل إشبيلية.. يا أهل القصبة.. لقد قتلوا شيخكم ومثلوا برأسه»

كان صدى صوتها يتردد بين الأودية والجبال.. وما من كتف تستند إليه وهي الغريبة عن هذه الديار.. فأهلها يسكنون في مالقة.. صغارها يركضون وراءها كخيط دم ينزف من جرح كبير.. عيونهم يسكنها رعب لا يزول!

«يا أهل إشبيلية.. إن تخليتم عن علمائكم.. فقد تخليتم عن بلادكم..»

خرجت نساء القصبة وراءها مذعورات.. حملنها برفق من يديها.. ترشُّ إحداهنّ الماء على وجهها وتقرأ عليها آيات القرآن.. ثم يعيدونها للبيت.. فيُغشى عليها لتفيق بعدها على آلام المخاض..

قالت أمي الثانية:

كانت هذه رسالة إلى أهالي إشبيلية من القشتاليين وأعوانهم مفادها:

الدم.. هو ثمن كلمة الحق!!

ورقابكم في مرمى سهامنا إن حاولتم رأب الصدع!!

ومن يحاول أن يستر عورة إشبيلية هتكنا ستره ويتّمْنا أولاده ورمّلنا زوجه..

وهكذا ولدتُ بروح عجوز وأنا مازلت طفلاً!!

«اجعل الصبر زادك والرضا مطيتك»
أبومدين الغوث

«إشبيلية تلك العروس المزينة بالقصور والبساتين والجنان المعلقة والجداول الرقراقة والمحاطة بأشجار الزيتون إحاطة السِّوار بالمعصم.. لم تكن لتغفر لفتاها ذلك الشرك الخفي..

غفرت له كل ذنوبه وإسرافه في أمره وبذخه وترفه.. غفرت له كل ذلك.. لكنها لم تستطع أن تغفر شركه في غرامها وإدخال الجلّاد على خدرها وقصِّ ضفائرها للمرتزقة.. وكان هذا الشرك إيذانًا ببدء زوالها من يد سلطانها!!»

هذا ما كانت أمي الثانية تقوله.. فقد كان سلطان إشبيلية (المؤيَّد بالله) قد جعل المرتزقة الفرنج جنده الذين يثق بولائهم له.. يسلمهم رقبته.. يمدّ يده لعدوه ويخطب ودَّه.. ويحارب من يجري دمه في عروقهم، ودماؤهم في عروقه.. يتنكر لأبناء جلدته ويغدق على أعدائه ويتذلل لهم.. فصار الاستسلام للفرنج منجاة والجهاد مهلكة وعارًا!!

وكانت الحادثة التي أشعلت قلب أمي الثانية وجعلتها تدور بين جدران البيت وتقول هذا الكلام تلك الواقعة التي حصلت بين جنود الفرنج وبعض تجار إشبيلية المسلمين حيث كان العسكر القشتاليون يتسكعون في الأسواق والقيساريات.. ويأخذون الحرير والأقطان

والأصواف وما لذّ من الطعام والشراب دون أن يجرؤ أحد من التجار على طلب الثمن!!

وفي يوم ثارت ثائرة أحد التجار ولم يرض بالمهانة فطلب الأجر.. حينها تمادى الجند وقهقهوا مستغربين الطلب.. فصاح التاجر وعلت الأصوات وانهال التاجر بالضرب على المرتزقة العلوج.. رآهم جند آخرون فأوسعوا التاجر ضربًا وركلاً حتى سال الدم واجتمع التجار يدافعون عن رفيقهم واشتعل السوق وامتلأت القلوب بالغيظ والقهر وشكَوا الأمر للسلطان.. وكان لابد من حكم القضاء في الأمر ليقول كلمته ولكن (المؤيَّد بالله) أرجع أمر القضاء إليه لحاجة في نفسه وهي الحكم لصالح هؤلاء المرتزقة حتى تطيب نفوسهم ويستفيد من دعمهم ومؤازرتهم وحمايتهم وإن كان متيقنًا من ظلمهم واستبدادهم!!

لقد كانت الحوادث تتوالى.. تتجمع بعضها مع بعض لتكون قيدًا يلتف حول عنق السلطان..

وتناهى لمسمع الناس أن السلطان يدفع كل سنة ملايين الدنانير لألفونسو السادس ويسوق له الذهب والفضة والمواشي ويفرض المكوس والضرائب على الرعية والدواب وكل ما يباع في الأسواق.. فأشبيلية التي قيل عنها «لو طُلب لبن الطير فيها وُجد» هي الآن تتضور جوعًا!!

وثارت ثائرة الناس حتى أن النسوة اللواتي كنّ يأتين إلى أمي الثانية يتعلمن منها أصول القبالة كنّ يتحدّثن في الأمر.. كانت أصواتهنّ تعلو.. يتساءلن..

كيف أسقط السلطان السيف من يده؟

ألا يعلم بأن السيف هو شرف الأمة..؟

كيف يجرؤ السلطان على فعل ذلك؟

إن السوس ينخر نخرًا في جسد إشبيلية.. إنها تتآكل من الداخل.. وما هي إلا ضربة واحدة وتسقط!!

وكثيرًا ما كانت تصل لأسماع العامة.. حكايا القصور وليالي الفجور وشرب الخمور؛ فيستشيطون غضبًا ونقمة..

لقد كان الملك يشبه النَّعام في عدم تقديره لعواقب الأمور.. فيضع رأسه في التراب ولا يرى حال رعيته.. فيُسرف في لهوه وغيه وكأنما يأخذ من الدنيا آخر رشفة..!!

ومع ذلك كانت أمي تقفز الحروف من شفاهها فرحًا وهي تذكر ذلك اليوم الذي اتحد فيه سلطان إشبيلية مع جيش المرابطين ليأدبوا ألفونسو السادس ويلقنوه درسًا لن ينساه في معركة الزلاقة..

فعندما جاء ابن شالب اليهودي وزير ألفونسو لقبض الجزية قال للسلطان:

إن ألفونسو يطلب منك أن تلد امرأته في المسجد!!

فأخذت الحميَّة السلطان ورفض الطلب.. فأساء الوزير الأدب وتعرض له بالسوء أمام وزرائه وحاشيته فما كان من (المؤيَّد بالله) إلا أن قتل الوزير..

وصل الخبر لألفونسو وأقسم أن يأتي بجنود بعدد شعر رأسه ولأن (المؤيد بالله) قام بمراسلة كل ملوك الممالك الإسلامية يستنجد بهم ليقفوا معه ضد ألفونسو ولم يستجيبوا له وتيقن بأنه لا يُرتجى منهم خير ولن يقفوا معه ولن يسارعوا لنجدته فلم يكن لديه حل سوى التحالف مع ابن تاشفين.. مع أن ملوك الممالك الإسلامية الخائفين من ضم الأندلس لدولة المرابطين حذروا السلطان من تحالفه هذا.. إلا أنه مضى في الأمر..

وتستعرض أمي ذكرياتها عن معركة الزلاقة وتقول وهي تضحك متشفية بألفونسو:

«لقد هرب الملعون إلى تل ليحتمي به من جيوشنا وكان معه خمسمئة فارس ما بين جريح ومكلوم وصاروا يتساقطون في الطريق واحدًا تلو الآخر ولم يدخل معه طليطلة سوى ثلاثين جندي!!»

وعاد ابن تاشفين إلى بلاده مع أنه كان يستطيع الاستيلاء على الأندلس.. لكنه كان قد وعد بتقديم المساعدة فقط!!

وأكملت أمي الحكاية وهي تضع عينيها على الأرض..

ولكن (المؤيد بالله) لم يحفظ هذا الانتصار وبقي في قلبه ريبة من ابن تاشفين خاصة بعدما وصل لأسماعه ذهاب وفد من علماء وفقهاء الأندلس إلى ابن تاشفين يطلبون منه صراحة ضم الأندلس لدولة المرابطين.. بل وأصدروا فتوى مفادها وجوب ذلك لاسيما أن التمزق والحروب بقيت مشتعلة بين ملوك الممالك الإسلامية.. وصار تقبيل فم الكلب ألفونسو هو ديدن الملوك الذين يريدون البقاء على قيد الحياة ولو كانت حياة ذل وهوان والاحتفاظ بعروشهم وكراسيهم الكرتونية حتى وإن كانت بلا كرامة وعزة!!

لقد كان ألفونسو صيادًا ماهرًا.. يتقن الحفاظ على حياة كلابه الذين لا يبتغون سوى عرض الحياة الدنيا وزينتها ويتبعونه وينفذون أوامره.. كيف لا وهو سيدهم!!

حينها عاد (المؤيد بالله) وطلب حماية ألفونسو فكانت هذه المعاهدة الجديدة القشة التي قصمت ظهر البعير.

***

بعد افتضاح أمر المعاهدة بين السلطان وألفونسو.. مرضت أمي وبدأ جسدها يضعف وبقيت في فراشها لا تقوم منه وكأن الخبر هزم روحها وعافيتها.. ثم بعد أيام قليلة نادت على إخوتي كي تسلمهم أخاهم الأصغر!!

ولن أنسى ذلك اليوم الذي جاء فيه إخوتي لأخذي من أمي الثانية..

فقد كانت في أيامها الأخيرة.. تحتضر في اليوم ألف مرة.. وهنت كثيرًا وشحب وجهها.. كنتُ أجلس بجانبها أتابع أنفاسها التي تخرج من سم الخياط وأراقب عينيها اللتين تدوران في محجريهما بلا قرار.. كان صوتها يتحشرج وكأنه يخرج من مدخنة.. أُكلمها فلا ترد.. وبعد فترة وجيزة ضعف بصرها وزاغ وقل سمعها وغار..

وفي الليلة التي سبقت وفاتها سلمتني لإخوتي الخمسة الذين كان أكبرهم في الخامسة عشر وأصغرهم في التاسعة !!

أخذوني رغماً عنهم.. فقد كان ذلك باديًا على وجوههم!!

وقبل أن أذهب.. انطلق لسان أمي.. وبدت في أحسن أحوالها.. أكلت وشربت وأسندت ظهرها وجلست.. ثم نادتني قائلة:

- أدنُ يا بني..

فاقتربتْ وحضنتني طويلاً وبكت كما لم أرها تبكي من قبل.. وأوصتني قائلة:

«يا بني..

ردِّد دومًا «رضي الله عنهم ورضوا عنه»

ولكي ترضى عن الله.. كن كالخضر.. إذ تجلى له السر والمغزى..

لا تكن أسير هواك.. ولا يكن هواك هو الميزان..

وارفق بنفسك.. فلا تدع عقلك المحدود هو الحكم على أقدار الله حينها سيكون السخط!!

قل لي بربك..

كيف يحكم القاصر على الكامل؟

وكيف ترى اختيارك أفضل من اختيار الله؟

وتذكر.. ماذا لو كان اليمُّ هو المنجاة ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾

وماذا لو كان انحناء النخل هو الغلة الوافرة؟ وجفاف العشب هو الميلاد المرتقب؟

فالرضا مخبوء في جار اليقين..

ألم تعلم يا بني بأن سواد الأقدار هي البياض..»

وما كان لي أن أفهم تلك الكلمات وأنا ابن السابعة.. فما كان منها إلا أن أعطتني هذه الكلمات في ورقة مكتوبة بخط يدها وقالت لي:

- ستتقن القراءة يومًا ما وتقرأ كلماتي.

وكانت هذه أول الوصايا التي أسمعها في حياتي!!

وكأنها كانت تعرف أن عقلي يموج بالأسئلة.. فكيف أذهب إلى إخوة بالاسم لا يعرفونني ولا أعرفهم؟

كيف ستمضي حياتي بعد أمي الثانية؟

أي مصير ينتظرني؟

وكل هذه الأسئلة لها إجابة واحدة وهي الرضا..

«الحق تعالى يجري على ألسنة علماء كل زمان بما يليق بأهله»
أبو مدين الغوث

وخرجت مع إخوتي الذين لم أكن قد رأيتهم في سنواتي السابقة إلا بعدد أصابع اليد الواحدة ولضيق حالهم بعد وفاة أمي وأبي ولصغر سني وعدم قدرتي على رفض أي أمر، فقد أوكلوني إلى خبّاز لأتعلم الصنعة وليضمنوا عددًا من الأرغفة يحصلون عليها مقابل عملي!

صرت أنقل العجين من البيوت الإشبيلية إلى الفرن.. أغسل المعاجن والمناديل وأحيانًا أخرى أحمل الحنطة والشعير والذرة والأرز والدُّخن إلى الرحى لتُطحن وتصير دقيقًا..

وفي آخر النهار كان الخباز يعطيني أجري خبزًا.. أحيانًا قد يكون خبز الدرمك وهو مصنوع من الحنطة الصافية بدون شوائب.. وأحيانًا يعطيني من خبز الخشكار وهو من الحنطة أيضًا، ولكنه لم يُنخل، ولم يكن يعطيني من خبز الشعير ولا الذرة؛ لإنه أقلُّ جودة من غيره، ولأنني يتيم فقد كان يحب إكرامي بخبز الحنطة مع أنه كان قليلاً جدًا ولا يأكله إلا رجالات الدولة؛ فقد ترك الفلاحون أرضهم وهجروها ورفضوا زراعتها، حيث كانت الغارات تُشنّ عليهم من كل حدب وصوب فتارة يُغار عليهم من الممالك الإسلامية المتاخمة لإشبيلية، وتارة من الإفرنج في الشمال؛ فصارت الحنطة باهظة الثمن ولا يقدر على شرائها إلا المترفون!

في كل صباح وبعد أذان الفجر، يلكزني أخي الكبير بقدمه، فأصحو مباشرة، فخلال دقائق معدودة يجب أن أخرج من البيت طارقًا البيوت بيتًا بيتًا لأحمل العجين المكوَّر إلى الفرن..

كنتُ أدخل تلك البيوت فأشعر باليتم الحقيقي.. بعض النساء كنَّ يُدخلنني إلى المطبخ، ففي كل أم أراها تعجن وتطهو الطعام كنتُ أشمُّ رائحة أمي وأراها.. وفي كل صوت دافئ كنت أسمع صوتها «إنّ الله معك»

كنت أشعر بها خلفي وعن يميني وشمالي.. تحوطني وترعاني.. حتى أنني كنت أسمع وقع خطواتها ورائي.. تحرسني كما يحرس الورد عطره.. وفي لحظات كثيرة كنتُ أشعر بالظمأ يتغلغل في مسامات جسدي وينفذ إلى روحي فيجفّفها فتغدو كهشيم المحتظر.. لكن لا تلبث تلك الحالة أن تزول بمجرد أن أتخيل شكل أمي وحنوَّها.. فحينًا كنت أشبِّهها بأمِّ عبدون وحينًا آخر بأمِّ زيدون، وكلما رأيتُ أمًا كنت أستحضرها ضاحكة مستبشرة فتفيض روحي بشرًا..

الأم وطن.. وأنا لا وطن لي ولا عروة وثقى تشد أزري وتستر عُري روحي.. غير أنها كانت تحنو علي في كل ليلة.. تفتح ذراعيها لأنام وهي تمسِّد شعري فأراني وقد بُسط البساط تحتي وشعَّ النور حولي.. أحمل القرآن وحولي جمع كبير.. وأحيانًا أرى أرضًا مقفرة يابسة فإذا وطئتها قدمي اهتزّت زهرًا وطربت.. كانت عيني تدمع عندما أدخل بيتًا من البيوت.. فأرى الإخوة والأخوات وقد تجمعوا في صحن الدار حول الفسقية.. ينثرون الماء على بعضهم البعض ويركضون ويتقافزون وصوت خرير الماء الذي يجري في الدار كجدول يطرب الأسماع ويوحي بالدفء والحنو الذي أفتقده..

كنتُ أتحاشى الرجوع إلى منزلنا المعتم كما أتحاشى نصْل سكين! لكن دخولي إلى هذه البيوت كان هو الضِّماد الذي أتقي به عتمة بيتنا البارد الخالي من حنان الأم ورعاية الأب.

وريثما كانت الأم تكوِّر العجين بيديها.. كنتُ أجول بنظري في البيت.. تفتنني النقوش على الجدران والطاقات المطلة على الفناء الداخلي وحاملات الزهور التي كنت أتمنى أن أقطف منها زهرة أو ياسمينة متدلية.. كانت رائحة ورق الليمون والبرتقال تختلط برائحة الياسمين والرياحين وتعبق في البيت وتحيله إلى جنة..

أخرج من البيت فألتفت إلى الوراء لأرى البيوت الإشبيلية وقد اكتست بالبياض.. ثم أنظر للأمام لأرى البياض الثلجيَّ يكسو الجبال بينما نحن على مقربة من فصل الصيف!

أُمعن النظر وأعيده فإذا البياض هو بياض زهر اللوز وقد غطى الجبال وكساها وكأنه ثلج!

لأعرف بعد ذلك من سيِّدي الخباز أبي العباس الطليطليّ بأن زوجة السلطان قد راقها مشهد الثلج وهو يغطي الجبال، وأرادت أن يدوم هذا المشهد أطول فترة ممكنة فأمر بزرع اللوز على رؤوس الجبال.. حتى إذا ما أزهر وأينع ورده الأبيض بدا وكأنه ثلج!!

كنتُ أشَمُّ رائحة الطعام الشهي الذي تطبخه الأمهات بحب، وأرى الإخوة والأخوات يتهامسون ويتحدثون، بينما كان إخوتي يتجنبون الحديث معي، وكنت أفكر كثيرًا في سبب ذلك.. يا ترى هل السبب هو بعدي عنهم لمدة طويلة في بيت أمي الثانية؟! أم أنهم يتطيَّرون بي ويعتبرونني نذير شؤم عليهم! وقد تأكد لي فيما بعد أنهم يتطيَّرون بي.. عندما رددوا هذا الكلام على مسمعي، ولولا الخبز الذي أجلبه لتخلَّوا عني.

كنت أخرج من منزلنا الكئيب قبل طلوع الشمس، وما أن أبدأ بأخذ العجين المكوَّر حتى ترتفع الشمس وتضرب بأشعتها الأزقة وأسقف القصور الإشبيلية الفارهة الممتدة على مرمى البصر..

قصر المبارك.. قصر المكرم.. قصر الزاهي والزاهر.. كانت قباب القصور الفسيفسائية المذهَّبة والزجاج الملوَّن تتلألأ وتخطف بصري..

من ينظر لتلك القصور يُخيَّل إليه أنه في جنات الخلد والنعيم المقيم، فالينابيع تتدفَّق من كل حدب وصوب.. والقباب تتلألأ، ونهر الوادي الكبير يؤدي فريضة العشق لإشبيلية الجميلة.. لكن الرائي لا يعرف أنَّ كلَّ حجر من تلك القصور مجبول بدمعة فقير وكلَّ قطعة فسيفساء منقوشة بعرق جائع، وكلَّ باب عاجيٍّ ممشوق انحنى لأجل بنائه مساكين!

وفي الطريق ما بين البيوت والفرن.. كنت أرى العطّارين والفرّائين والزجّاجين، وقد أغلقوا أبواب دكاكينهم؛ فالناس لا تملك ثمن الشراء بينما السلطان (المؤيَّد بالله) ينثر الذهب عند أقدام ألفونسو ليكسب ودَّه ويتقوى به على إخوته!

أما التجارة التي راجت في ذلك الوقت فقد كانت تجارة الرقيق.. حيث كان السماسرة اليهود بارعين في جلب هؤلاء وبيعهم، ومما ساعدهم على ذلك كثرة الحروب سواء مع الممالك الإسلامية المجاورة أو مع القشتاليين في الشمال عدا عن الحملات المتكررة على الثغور.

كنت أسير صوب الفرن عندما سمعت تاجرًا يهوديًا في السوق يعرض بضاعته (عبد) ويقول للمشتري:

- إنه عبد لن ترى مثله.. له مواصفات قلما تجدها في العبيد.. فقد أُتي به من مدينة فردان الفرنسية.. وفردان كما تعرف هي المدينة

الأشهر بخصي العبيد.. ويتقن اللغة العربية والعزف على الآلات الموسيقية وله صوت عذب دافئ اكتسبه نتيجة الإخصاء!

وعرفت فيما بعد أن اليهود يبيعون العبد المخصيّ بمبالغ عالية تفوق العشرين ضعفًا من ثمن الشراء العادي، فالعبد المخصيُّ هو الأعلى سعرًا؛ لأن الناجين من هذه العملية قلة، ولأن العبد المخصيّ يفقد ذكورته وقدرته على الإنجاب فيستطيع المشتري أن يدخله على نسائه ليخدمهن ولا يرتاب ولا يشك فيه!

***

ذات صباح وبينما كنت أحمل العجين المكوَّر من إحدى البيوت إلى الفرن هبّت ريح عاصفة لم تبق ولم تذر.. فجثا الناس على الركب وتمسكوا بالأحجار والأشجار وببعضهم.. لكن الريح حملت الكثيرين منهم فلم يُر لهم أثر بعد ذلك!

تمسكت بثياب سيِّدي الخباز الذي بدوره جثا على ركبتيه وهو يستجير الله:

«اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابًا يا الله..

اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا يا الله

اللهم أبعد عنا ريح العذاب.. اللهم أبعد عنا ريح العذاب»

كان ملاذي في ذلك اليوم هو سيدي الخباز الطيب الذي تعلقت بيده، بينما كانت المعاجن والمناديل والأواني تتطاير وتضرب رؤوس المارّة.. وبينما كنا نختبئ تحت صخرة كبيرة بجانب المخبز والناس يتطايرون أمامنا كأوراق الشجر ثم يُلقون على الأرض فتدوسهم أقدام المارة.. اختلط صوت الريح المفزع بعويل النساء وصرخات الأطفال.. الذين أفلتت الريح أيديهم من أيدي أمهاتهم، وكانت الريح تزمجر

وتتوعد، والسماء تصغي لصوتها فتظلم وتكفهر.. لم يكن أحد يستطيع التعلق بشيء قط.. كان الجميع يصرخون كالمعتوهين وقد أصابهم مسٌّ من الجنون.. كدت أطير أكثر من مرة لولا يد سيدي الخباز الخشنة الحانية التي كانت تمسكني فيما كانت الريح لا تزال تضرب بشدة وتجعل كل شيء مهشَّمًا!

بعد ساعة بدت وكأنها دهر.. بدأت الريح تخفض صوتها، وفيما كان الناس مشغولين بالدمار الذي خلفته الريح.. يعدُّون المفقودين ويحصون أعداد أشجار الزيتون المحيطة بأشبيلية والتي اقتلعت كلها وكانت سببًا لندرة الزيت في المدينة فيما بعد.. وبينما كان الناس مشغولين بذلك.. كنتُ حينها مشغولاً بدعاء سيدي الخباز.. إذ استوقفني دعاؤه وهو جاثٍ على ركبتيه «اللهم اجعلها رياحًا لا ريحًا يا رب» فهدأت وسكنت روحي معه فقد ظل يستجير ويدعو ويتبتل، وظل السؤال الذي يلحّ في عقلي هو..

«يا ترى ما الفرق بين الريح والرياح؟»

فسألت الخباز في اليوم التالي للمأساة التي قلبت المدينة رأسًا على عقب فزادتها جوعًا على جوعها واضطرابًا فوق اضطرابها فقال لي:

«اعلم يا بنيَّ أن كلمة الريح إذا جاءت مفردة في القرآن فهي ريح عذاب، وإن جاءت جمعًا فاعلم أنها رياح رحمة وبشر..

يقول تعالى ﴿وهُوَ الَّذي يُرْسِلُ الرِّياحَ نُشُرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِه﴾

ويقول ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾

فالريح يا بني إن كانت قادمة من جهة واحدة فإنها تكون قوية ملتئمة.. أما الرياح فهي تأتي من جهات متعددة وتتقابل وهذا يجعلها خفيفة وتثبت الأشياء من شجر وحجر في أماكنها..

فالريح إن جاءت من ناحية واحدة صارت إعصارًا يقلع الشجر ويحمل البشر لأن الناحية المقابلة لا يوجد فيها رياح تقاوم!!»

فسألت سيدي الخباز.. من علمك هذا؟

قال:

تعلمته على يد شيوخي في فاس..

حينها وقع في قلبي جمال القرآن وبلاغته وسحره، وتمنيت لو أنني أقرأ القرآن وأحفظه وأفهم معانيه وتفسيره.. ولكن أنّى لي ذلك وأنا أعمل من الفجر إلى غروب الشمس..

شعرتُ بضيق شديد.. كان ألمي يشبه لسع تلك النار التي يوقدها الخباز في التنُّور.. وأخذت أرقب النار.. فأراها تُنضج العجين.. فيصبح الأشهى والألذّ.. فعرفت أن النار تشبه البلاءات والمصائب التي نتعرض لها في حياتنا.. لكنها هي الدواء لأوجاعنا وانكساراتنا.. بها يصبح الألم هو المرفأ.. وبالألم يحصل الكشف وتشتدّ الخطوة وينجلي الكرب.. كانت هذه المعاني تعتمل في صدري ولا أستطيع التعبير عنها لصغر سنّي!!

وكنت أتساءل..

متى وأين ستكون الخطوة الأولى؟

لقد فتحت لي تلك العاصفة رياحًا من الأسئلة وحملتني حتى أكتب وأوقع في كراسة الحياة بدء التشكل والتغيير..

خرجت في اليوم التالي للعاصفة والناس مشتعلون غضبًا يتهامسون بأن سبب هذه المصيبة التي حلّت بإشبيلية هي السلطان (المؤيَّد بالله) ومن والاه.. ومن صمت وسكت على جَوره وسرَفه وصلَفه ومن زيَّن له سوء عمله.. وأنشد شعرًا له يهوِّن أمر دفع الجزية للأعداء!!

لقد سمعتُ الناس يسبّونه ويشتمونه ويُلقون باللائمة عليه وعلى ملوك الممالك الأخرى الذين يظنون أنفسهم ملوكًا!! والله هو الملك الذي سيزيل عروشهم الهشة الضعيفة..

صرخ أحدهم.. والله إن عروشهم ستزول أسرع من لحسة الكلب لأنفه!!

كان الناس يُجمعون أن غضب الله قد حلّ بإشبيلية بسبب التعارك والتنافر بين الممالك والتصالح والمصافحة مع الأعداء!!

كانوا يتساءلون:

كيف ينظر الله لقوم تفرّقوا أمام عدوّهم؟

كيف ينتظرون رحمة الله وقد لاذ ملوكهم بثوب ألفونسو.. يحتمون به ويستقوون به على بعضهم البعض؟!!

كيف يوقع السلطان معاهدة مع الأعداء.. ويطمئن لهم.. ويقتتل مع إخوانه ويهتك ستر مدينته ويستلذّ بالسقوط في القاع؟ فهذا الاقتتال وهذه المصافحة والفرقة هي مدعاة لغضب الله على العباد.. إذ كيف يريق الأخ المسلم دم أخيه.. وكيف يصمت الفقهاء والعلماء على هذا الظلم؟

- كيف لهذه الوجوه التي تحمل ذات ملامحنا وتسجد لذات قبلتنا وتتلو مثلنا آي القرآن.. أن تزرع الخناجر في صدور الإخوان وترش الأعداء بالورد؟

كيف يشعل السلطان النار في خيمة إخوانه ثم ينام هادئ البال؟ أيظن أنه سينجو من تلك النار التي أشعلها؟

بدأ صبر الناس ينفد.. صدورهم تحترق كما احترقت بساتينهم.. بدت أنفاسهم دخانًا يشبه الحرائق التي اشتعلت في المدينة..

الأصوات تعلو في الأسواق المزدحمة والأزقة والطرقات..

كبار السنّ الذين كانوا يتّكئون تحت كرومهم هانئين منعّمين هاهم اليوم يجتمعون تحت كرومهم التي صارت حطامًا.. وقد حملت الريح الركام وألقته في الشوارع وعند عتبات بيوتهم..

يحوقل أحد الشيوخ وهو يبث لجاره همّه:

«هذه الريح جند من جنود الله.. هبَّت لتوقظ الناس الصامتة الغافلة والسلطان العابث اللاهي!!»

يهز الجار رأسه يمنة ويسرة معترضًا:

«وهل تظن أن السلطان يفيق من غفوته تلك؟ هل يمكن أن ينزع خنجره من صدر إخوانه ويوجهه لصدور أعدائه؟ لا أظن ذلك!! أيُعقل أن السلطان لم يفطن لخبث هؤلاء ونواياهم؟ ألم يعلم بأن ألفونسو يعتاش من إشعال الفتنة بينهم؟

كيف يعطي الدنية في دينه؟ كيف يسوق الذهب والفضة والملابس والمواشي والأسلحة جزية لعدوه بينما الناس تتضور جوعًا؟!!

أهي الخيانة؟ أم البلاهة وحب الدنيا؟ أم كلاهما معا؟

وعلت أصوات الشيوخ والعجائز.. يضربون أكفَّهم ويرجون رحمة ربهم.. يدعو أحدهم قائلاً:

يا رب لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا.. يا رب رحمتك نرجو وعذابك نخاف..

وكان مما زاد في غضب الناس على السلطان ما تناهى إلى مسامعهم من ترف ينعم فيه هو وأهله..

فقد قام بسحق كميات هائلة من الطيب والمسك والكافور والعنبر ثم صب فوقها ماء الورد وعُجنت بالأيدي حتى صارت كالطين.. ثم

أتى بهذه الخلطة العجيبة ورشّها في ساحات قصره.. تلبية لرغبة زوجته اعتماد الرميكية التي اشتهت أن تدوس على الطين كما كانت قبل ذلك بعدما رأت القرويات من على شرفات قصرها يخضن الطين بأرجلهن مع صويحباتهن وبناتهن.. فما كان من السلطان إلا أن صنع لها طينًا معطرًا من المسك والكافور لتخوض فيه هي وجواريها!!

لقد استذكر الناس قول ابن تاشفين عندما دخل إشبيلية بعد انتصار الزلاقة ورأى ما رأى من السرف والترف فقال:

«إن هذه الأموال الكثيرة التي تُصرف في هذه الترهات لابد أن يكون لها أرباب، ولا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبدًا.. وأخذه بالظلم فحش وفجور.. ومن يستنفد همته في ذلك فلن يستطيع ضبط بلاده وحفظها»

كانت إشبيلية تغلي كما يغلي الماء في المرجل.. ولا أحد يعرف ما القادم!!

«نسيان الحق خيانة»

أبو مدين الغوث

الناس في الطرقات والأسواق لا يهدؤون.. يتحدثون همسًا وجهرًا!! خلف الأبواب وأمامها.. فلم يعد الأمر يخفى على أحد!!

الأخبار تتوالى عن اقتراب المرابطين من إشبيلية درّة الأرض وشبيهة حمص، وفي نيته الاستيلاء عليها وضمّها إلى دولته كما ضمّ غرناطة.. لقد فرح الغرناطيون بذلك الضم؛ لأنه أحسن إليهم وأكرمهم وأعفاهم من الضرائب التي أثقلت كواهلهم..

كانت الناس مبتهجة باقترابهم.. الصغار مشغولون برسم صورة لابن تاشفين مما يسمعونه من وصف الكبار لخلقته وخُلقه.. رسموه.. أسمر اللون.. متوسط القامة.. نحيل الجسم.. خفيف اللحية والعارضين.. صوته عذب رقيق وعيناه كحلاون خاشعتان وكأن الدمع يترقرق فيهما وحاجباه متصلان كما يريد وصل الممالك الإسلامية.. هكذا رسمه الصغار في خيالهم..

على شاطئ الوادي الكبير وسط أشجار الزيتون المقلوعة التقى جمع من الإشبيليين وأصحاب الحوانيت والصُنّاع، ورجل آخر كان يأتي للشراء بين فترة وأخرى.. كان كثير اللهو والعبث لا يدَّخر جهدًا في لفت أنظار الفتيات الأندلسيات اللواتي لا يلقين له بالاً؛ لثقل ظله.. وكان يعرف في السوق بطول لسانه..

ساحة السوق الواسعة والتي تتفرع منها الطرق إلى البيوت والحوانيت تمور موراً بالأحاديث.. الرجال يجلسون جماعات أمام حوانيتهم.. وإذ بهذا الرجل يتدخل ويدلي بدلوه:

«حمى الله إشبيلية وحمى سلطانها.. فهو الذي أنقذ البلاد والعباد ولم تأخذه العزة بالإثم.. وأد الفتنة في مهدها.. فعندما أحس بالخطر الذي يتهدد الممالك الإسلامية وخاصة بعدما استولى ألفونسو على طليطلة حينها لم يتردد في الاستعانة بيوسف بن تاشفين على الرغم من تحذيرات سلاطين الممالك له فقد رأى هؤلاء السلاطين أن تلك الاستعانة قد تكون مؤشراً لزوال ملكه!!

لكنه غلب نفسه وقال: «لرعي الجمال أحبُّ إلي من رعي الخنازير» ووقف يداً واحدة مع ابن تاشفين وانتصرا في معركة الزلاّقة.

فما الذي يريده ابن تاشفين من إشبيلية؟ أهكذا يردّ المعروف والجميل؟

على الجهة المقابلة كان هناك جمع آخر من الرجال يتصببون عرقًا ويتطاير الشرر من أعينهم حنقًا مما سمعوه من ذلك الرجل الضيِّق العينين والمنكبين والفكر!

ردّ أحدهم وهو يفرك يديه دهشة ويهزُّ ركبتيه غضبًا:

« أي معروف ذلك الذي فعله السلطان المؤيَّد بالله؟ لقد استنجد بابن تاشفين رغمًا عن أنفه!!

ألا تذكر عندما سقطت طليطلة وليس لسقوطها سبب إلا ارتداد السهام إلى قوس راميها لخيانته! ألا تذكر ماذا فعل؟

انكسرت طليطلة لا لقلة سلاح وعتاد.. بل لأن القلوب الخضراء أصبحت يبابًا.. شكّوا السكاكين كما يشكّون الخرز وطعنوها في الخاصرة..

يا الله.. ما أبشع أن يختار المرء العبودية رغم أنه سيِّد!!

سقطت طليطلة، ولم يحرك السلطان ساكنًا!! بل على العكس من ذلك لقد بعث الهدايا والتحف والذهب استعطافًا وتذللاً لألفونسو!

لقد تركوا جرح طليطلة مفتوحًا ينزف ومعهم الضِّماد لكنهم بخلوا به.. لقد التهمها ألفونسو فريسة سهلة.. كيف لا وقد هانت على إخوتها وبني جلدتها.. كانت طليطلة تصرخ وتستغيث فيما كان سلطانك الذي تدافع عنه الآن يتفرج صامتًا.. عابثًا.. لاهيًا.. بل كان قد وقّع اتفاقية تعهد فيها بعدم تقديم المساعدة لإخوانه في طليطلة مهما حدث!!

السلطان لم يتحرك إلا عندما أكل الطُّعم وشعر بخطر ألفونسو يقترب من أسوار إشبيلية..

فعندما أحسّ بالخطر المحدق وعرف أن اتفاقيات العار والسلام لا تزن الريشة التي كتبت بها.. عند ذلك فقط طلب العون من ابن تاشفين!!»

عدّل الرجل جِلسته قليلاً ثم أكمل:

«على ما يبدو أنك قد نسيت اسم سلطانك الجديد.. لقد تسمّى باسم (المعتمد بالله) تيمّنًا بمقاربة حروفه من حروف زوجته الجديدة (اعتماد الرميكية) فمن هيامه بها جمع حروف اسمه مع اسمها!!

قهقه الرجل وهو يكمل:

«أنصحك أن تناديه باسمه الجديد الذي تسمى به فتخيُّر الأسماء وتغييرها وفرش المسك والعنبر لمن هام بها أولى من تدبيره لشؤون الرعية..»

وقال آخر موافقًا على كلام رفيقه:

«سلطانك المعتمد بالله هاهو يعود للحظيرة من جديد.. عاد ليرعى الخنازير ويستنجد بألفونسو.. فأهلاً وسهلاً بابن تاشفين وليخلصنا من هذا السلطان الذي لا يتقن سوى الركوع تحت أقدام القشتاليين.»

نقر الرجل كلماته كما ينقر الديك الحَبّ المنثور وقال:

ما فعله السلطان هو عين العقل.. فليس بمقدورنا محاربة ألفونسو ورجاله..!!

حينها رأيت سيدي الخباز (أبو العباس الطليطلي) يتقدم بسرعة نحو الرجل.. أمسكه من منكبيه وشدّه بقوة فصار مثل طائر نُتف ريشه وقال:

«لتعلم أن للحرية تكاليف لن يطيقها إلا الصابرون المؤمنون وصفحات التاريخ ستكتب أن النصر يركع لرجل يقاتل ويجاهد، فالأرض تطوى له كزرابيّ والسماء تمدّ حبلها للرجال الرجال.

هذه معركة مفروضة علينا.. لا مناص منها.. ومن ظن أنه ناج إذا رفع الراية البيضاء فهو واهم.. ابن تاشفين أدّبهم في الزلاقة، والآن وبعد هذا النصر يأتي السلطان ويلتفّ على ابن تاشفين ويطلب النصرة من ألفونسو؟!!

إذا كان ما تقوله صحيحًا عن سلامة نية السلطان وحسن عمله.. فلماذا يعاود الاتفاق سرّاً مع ألفونسو ضد ابن تاشفين؟ لماذا يغدر بسلطان طليطلة وبابن جهور أمير قرطبة؟ لماذا يهادن ويصافح العدو ويجافي ويغدر أبناء دينه وجلدته؟ أليست هذه خيانة لله ولرسوله؟

إنه بذلك ينسل ثوب الأندلس خيطًا خيطًا ويفك عراها عروة عروة!

ولولا أنك خائن مثله ما قلت قولك هذا.. اخرج من السوق وإلا قطعت رأسك..»

خرج الرجل وهو يتعثّر بقدميه خوفًا ورعبًا، ولولا أنه ركض لتلقفته حجارة الناس من كل حدب وصوب..

لم أكن أفهم ما يحدث على وجه الدقة.. ولكن عندما ركض الجمع صوب الرجل بالحجارة وأخرجوه من السوق.. فهمت معنى الخيانة لله ولرسوله!

رجع سيدي (أبو العباس الطليطلي) ووقف أمام التنور يحوقل والدموع تتجمع عند أطراف عينيه ولا تنسكب.. أخذ يحكي تفاصيل كثيرة عن حصار طليطلة وسقوطها.. عن ملكها الساذج الذي استضاف ألفونسو تسعة أشهر وأسكنه في قصر قريب من قصره.. فأتاح له ذلك أن يتعرف على تحصينات المدينة جيدًا.. مداخلها ومخارجها وقلاعها وحصونها.. ثم إذا حانت الساعة التقمه بلقمة واحدة!!

عن قنطرتها العجيبة القائمة على قوس واحدة والتي يجري الماء تحتها.. عن دروبها الضيقة وأزقتها المتعرِّجة وأرضها الصخرية.. عن شوارعها التي تنظف نفسها بنفسها؛ فالقنوات المائية تجرف المخلفات على جوانب الطرق.. عن النهر الذي يلفها كشال عروس مطرَّز من جهاتها الثلاث.. عن نهر تاجة المتعرّج الذي يروي ظمأ المدينة الصخرية وبيوتها العتيقة..

حوصرت طليطلة أشهرًا طويلة.. مات ثلاثة من صغاره جوعًا وماتت أمه العجوز قهرًا.. بقي الوليد الصغير الذي يرضع من أمه الجائعة والتي كانت تشرب منقوع الماء والنعنع أو منقوع الماء والبابونج!!

كنتُ أستمع لسيدي (أبو العباس) عندما غير دفَّة الحديث ومسح دمعة طفرت عنوة من عينيه وقال:

«عليك من اليوم أن تراقبني جيدًا يا بني.. أنت في عمر ابني

البكر الذي مات جوعًا.. لو كان حيًا سيكون في مثل عمرك.. مثك تمامًا، وكنت سأعلمه صناعة الخبز أيضًا.. لقد صرت رجلاً يُعتمد عليه..

الوقوف أمام النار يا بني يحتاج إلى طولة بال وصبر وأناة.. يجب أن توقظ حواسَّك كلها حتى لا تحترق الأرغفة.. حاسة الشم والبصر واللمس هي سلاحك.. ينبغي أن تكون يدك سريعة وخفيفة لتدخل الأرغفة وتخرجها بسرعة، وعليك أن تراقب قوة النار واشتعالها ومقدار توهجها.. فإن خمدت تعجَّن الخبز، وإن اشتعلت زيادة احترق، وإن انسدّ خروج النار انفجر الفرن لا سمح الله ولن يمضي وقت طويل حتى تتعلم بإذن الله..»

كان يحكي وأنا أرنو لشيء آخر تمامًا..

كانت روح سيدي أبي العباس تشتعل في صدره كما النار في التنور.. أرقب معلمي حينًا، وأرهف سمعي للرجال المتحلقين في الساحة حينًا آخر.. عيني على الفرن وأذني مع الرجال في الساحة..

خرجت من الفرن وركضت وركضت حتى صار صدري ينتفخ صعودًا وهبوطًا.. وجهي أصبح كنار التنّور احمرارًا.. وصلت نهر الوادي الكبير وجلستُ تحت شجرة زيتونة وارفة.. التمعت في الذاكرة صورتي طفلاً رضيعًا عاريًا وحيدًا.. بلا أب ولا أمٍّ ولا إخوة حتى..

وأحزنني أن صندوق الذاكرة لا يحمل صورة واحدة لأمي أو لأبي.. ومع ذلك أشعر أنني أعرفهما جيدًا وأعرف ملامحهما ونبرة صوتيهما في أذني.. أشعر أنني أحمل ملامحهما ورائحتهما وخضرة قلبيهما وشيئًا كبيرًا يمور في صدري ولا أستطيع له تفسيرًا!!

أعود إلى البيت.. أتمدّد في فراشي وأتقلب كثيرًا.. كان إخوتي

يرقدون معي في نفس الغرفة على خمس فرشات متجاورات، ورغم ذلك كانوا يتحدثون مع بعضهم يتهامسون ويضحكون أحيانًا ولا يعيرونني اهتمامًا.. كنت أنكمش في فرشتي كجنين في بطن أمه وأبكي بصوت خافت وأغطي وجهي حتى لا يسمعني أحد ولا يراني..

كانت الأسئلة تضجّ في صدري، والحكايا تشتعل، لكنها تسيل إلى الداخل.. لم أكن أجد إجابة عن أسئلتي..

لماذا ينتظرونني على باب الدار يتناولون مني الأرغفة بلهفة ويتركونني عاريًا من حضن وشوق وحب؟ ما الذنب الذي أذنبته؟ وإن تصادف مولدي في يوم وفاة أمي وأبي هل يكون هذا ذنبًا أُعاقب عليه؟!!

ذات ليلة لمحت أخي الكبير زيدًا يتقلب في فراشه كما أتقلب.. بينما البقية يغطّون في نوم عميق.. اقتربت منه على استحياء ورجوته أن يحكي لي عن أمي وأبي.. علّني بحكايته أرسم صورة لهما..

في المرة الأولى أدار وجهه عني.. في المرة الثانية فعل كما في المرة الأولى.. وفي الليلة الثالثة حكى دون أن أسأله:

«كان أبونا شيخًا فقيهًا عالمًا لكنه لم يكن من فقهاء السلاطين.. كان يقول الحق ولو على قطع رقبته ولا يخشى في الله لومة لائم.. قتلوه لأنه أراد خير الإسلام والمسلمين.. أراد الإصلاح وجمع كلمة ملوك الممالك الإسلامية.. لقد دفع دمه وعمره ثمنًا للسير في الطريق السويّ..

لم يكن له ظهير ولا سند سوى أمي، ومع ذلك مضى في الطريق الصعب الشائك!!

كانت عيناه سوداويتين دامعتين دومًا.. هذا الدمع الكامن فيهما يضفي عليه رقة وعذوبة.. كان يخاف علينا من الطير الطائر.. يوصي أمي دومًا بأن لا تخرجنا خارج المنزل.. كانت شفتاه دومًا تتمتمان.. أحيانًا أسمع صوت تسبيح وتهليل وتكبير، وأحيانًا أرى حركة الشفاه دون صوت.. كنا نشعر بغيابه عندما يطول ونستنجد به ونركض صوبه إن صرخت أمي موبِّخة إيّانا أو ركضت تريد معاقبتنا..

كان يضمّنا تحت عباءته ويحمينا ويهوِّن على أمي ما فعلناه، ثم يخرجنا من تحت عباءته وهو يضحك ويقول لنا.. لا تفعلوا ذلك مرة أخرى.. واذهبوا وقبِّلوا رأس أمكم وأيديها..

كنت أراه كثيرًا يرفع يديه بالدعاء للمسلمين..

وكانت أمُّنا مليكة.. امرأة من الجنة.. نحيلة جدًا.. وأظن سبب ذلك من الولادات المتتابعة، فقبل أن تفطم أحدنا تكون قد حملت بالآخر.. كنتُ أسمعها وهي تلقي الشعر على مسمع أبي، وأبي يجلس مزهوّاً بسماعها.. عندما تضحك كان وجهها يضيء كالقمر، ولها غمزة في أسفل ذقنها مثلك تمامًا.. عيناها هادئتان واسعتان كنهر الوادي الكبير.. وصدرها كمرفأ النهر الذي يلمّ المراكب ويحضنها..

كان أبي يجلس معها طويلاً ويتحدثان كثيرًا.. كان يستشيرها في كل أمر.. وكانت معلمة حاذقة تعلم صبيان وبنات الحي القرآن الكريم حتى أن السلطان طلبها لتعلم أطفاله..

تمر أمي في خيالي دومًا وهي ترتدي ثوبها المطرَّز الأخضر الحريريَّ صبيحة يوم العيد.. فقد كان أبي يخيط لها ثوبًا بلون مختلف كل عيد.. كانت تنتظره وهو قادم من صلاة العيد بالقهوة والدعوات والقبلات على يديه وجبينه..»

كـان أخي يحكي وهو يغـالب دمـوعـه، بينمـا كـان إخـوتي في فراشهم ساهمين لا يتقلبون.. كنتُ أرغب أن أسمع أكثر وأكثر عن أبي وأمي، ولكنّ أخي زيدًا سكت فجأة وكأنه أغلق ذاكرته بالمفتاح.. لكنه وهو يغلق البـاب حضنني لأول مـرة وأحـسـستُ بدموعه تبلل شـعري وتنساب على وجهي!!

«من اشتغل بالدنيا ابتلي بالذل فيها»
أبو مدين الغوث

كل يوم أخرج إلى الفرن كنتُ أزداد يقينًا بكلام سيِّدي الخباز (أبو العباس) عن السلطان الذي خان طليطلة وسلّمها لقمة سائغة للاحتلال القشتالي.. وعن سياسة القشتاليين في تفريق وتقسيم المسلمين إلى كيانات ودويلات يعادي بعضها بعضًا.. فهذا ما يضمن تفوقهم وانتصارهم على المسلمين..

مقاتلة المسلمين في جمع واحد لا قدرة للقشتاليين عليه؛ لذلك فقد فعلوا كل ما بوسعهم لفكّ غرزة الثوب الأندلسي وعزل كل مملكة عن أخواتها وإذكاء الفتنة وتقسيم الناس حسب أماكن قدومهم وأصولهم ومنابتهم..

لقد نجح ألفونسو في جعل انتماء المسلمين له هو!! وصار هو المنقذ في الملمّات ونجح في تفكيكهم وقطع جسور التواصل بينهم وتبريد عواطفهم تجاه بعضهم.. بل وجعلها مجمّدة كثلج هذه البلاد وجعلهم يخافون بعضهم بعضًا!!

وكان يخطط ويعمل ليل نهار على إذكاء الفروق بينهم.. فهذا بربري.. وذاك عربي، وهذا يماني وذاك قيسي.. يمدّ هذا بالسلاح ويمدّ ذاك بالسلاح ليزرع الفتنة ويشعلها..

وبدل أن يكون السلاح بيد المسلمين لقتال القشتاليين.. نجح

ألفونسو في جعل المسلمين يرفعون السلاح في وجه بعضهم بعضًا.

استنزفهم ألفونسو بالضرائب وأعطاهم السلاح تحت هيمنته ومراقبته..

كان يعرف كيف ولمن يوصل السلاح!! لقد نجح ألفونسو بإشغال كل مملكة بهمومها الخاصة.. وبدل أن يكون الهمّ همّاً واحدًا.. صار همومًا متفرقة متباينة، وغاب عن ملوك الممالك أنهم أصحاب قضية واحدة..

وكان رأيه الذي لا يفتأ يذكره لأصحاب الحوانيت في السوق هو:

«إن بقي الناس صامتين ولم يثوروا فستسقط إشبيلية كما سقطت طليطلة في يد ألفونسو.. فألفونسو ثعلب ماكر وهو يستهدف كل الممالك الإسلامية قاطبة، ولكن يا أسفاه على الإخوة الذين يسنُّون سيوفهم لذبح بعضهم ولا يفقهون اللعبة!! لقد عرف ألفونسو كيف يقطع أوصال الجسد الواحد قطعة قطعة ليسهل عليه قضم الجسد الواحد دفعة واحدة!!

هزّ أصحاب الحوانيت المجاورة رؤوسهم موافقين على كلام سيدي أبي العباس..

كانت الأحداث تتوالى يومًا بعد يوم.. كل حدث يرجح رأي سيدي الخباز..

ففي ذلك اليوم علت في السوق أصوات العرب والبربر حتى طغت على صوت أذان الظهر فلم يذهب أحد إلى المسجد من شدة الهرج والمرج الذي حصل.. الناس يتدفقون بأعداد غفيرة كما يتدفق نهر الوادي الكبير.. يركضون صوب الأصوات المتعاركة..

كان سيّدي الخباز يتابع المشهد قلقًا.. يتمتم بكلمات لا أستطيع

التقاطها.. أفهم حزنه وقلقه.. فأمسكت بيده وشددت عليه..

فبينما كان البربري يقف على باب النحّاس العربي ينتظر أن يسلّمه إبريقًا كبيرًا وكؤوسًا وصينية منقوشة.. كان النحّاس العربي يماطل ويماطل حتى ضاق البربري ذرعًا وصرخ قائلاً:

- أيها العربيّ من تظن نفسك؟ والله لولانا نحن البربر ما كان لكم موطئ قدم هنا.. فنحن من فتحنا البلاد وذلّلنا الأرض للعباد ولولانا ما عشتم مرفّهين منعّمين في هذه الجنان.. فتحنا البلاد لكم.. فسكنتم المدن الكبرى وفرضتم علينا سكنى الثغور والضواحي..

ثم تقدم البربري قليلاً وأمسك برقبة النحّاس العربي وشدّه بعنف وصرخ:

«هيا أعطني الإبريق والكؤوس والصينية..»

أبعده العربي جانبًا وقال:

والله إنا لنحن أهل الرسالة وأهل العربية وما فعلتم ذلك وما فتحتم هذه البلاد إلا لتلحقوا بركبنا وتحوزوا بعضًا من مجدنا وسؤددنا ولتثبتوا لأنفسكم بأنكم لستم بأقلّ منا، وأنّى لمن يسكن الجحور أن يلحق بالنسور..

قل لي بربك..

لماذا أحرق طارق بن زياد مراكبكم؟»

بهت البربري ولم يُجب!! ردّ عليه بربري آخر.. ركض من أقصى السوق.. وقال:

«والله ما أحرقها وهذه كذبة اخترعتموها أنتم العرب!!»

قال العربي:

«بل أحرقها وما حرق المراكب إلا لأنه لمس فيكم ضعفًا وقلة حيلة

ولولا أنه أحرق المراكب لعدتم من حيث أتيتم!!»

حينها أخذ البربري الإبريق النحاسيّ وضرب به رأس النحّاس العربي واشتعل السوق أيامًا ولياليَ كفوهة بركان لا يهدأ!!

لم تنم إشبيلية ثلاث ليال.. هُدمت البيوت وقطعت الأشجار وخُرِّبت الحوانيت والسلطان لاهٍ ساهٍ وكأنّ ما يحدث ليس شأنًا يعنيه!!

اجتمع عقلاء المدينة وفقهاؤها لتدارس الأمر وتهدئة النفوس وتوصلوا إلى قرار يفضي بطلب النجدة من ابن تاشفين.. فقد كانت الصدور تغلي والعقول محجوبة بالغضب وأهالي إشبيلية ناقمون على السلطان الذي لم يستطع ضبط الأمور ولا إعادتها إلى نصابها!!

قال سيدي أبو العباس:

«ما حدث في إشبيلية اليوم.. حدث في طليطلة كثيرًا.. فكثيرًا ما تناوش المولّدون مع العرب ونقموا عليهم.. فالعرب تسلموا المناصب واستولوا على الثروات.. والمولّدون شعروا أنفسهم وهم أهل البلاد بأنهم سُخرة للعرب.. يدفعون الضرائب ولا يأخذون من حقوقهم شيئًا.. فكان هذا أول حجر يسقط من مدماك طليطلة وتتابع السقوط حتى وقعت طليطلة في أيدي القشتاليين..»

عقلي الصغير كان يلتقط الأحاديث في ذلك الوقت ويخزنها فقط!

كان القلق والخوف هو الذي يسيطر على الناس، ولولا تدخل الفقهاء والعقلاء لتهدئة النفوس لبقيت النار مشتعلة في إشبيلية، ولكنها خمدت مع توالي الأخبار باقتراب ابن تاشفين من أسوار إشبيلية..

هدأ الناس لأنهم عرفوا أنه يلوح في الأفق حل قريب باقتراب بن تاشفين.. كان هدوءاً مصحوبًا بالترقُّب والحذر.. فقد خاف الناس أن

يتكرر ما حدث في طليطلة وقرطبة وغرناطة ومالقة وطرطوشة.. فعندما تشتعل النار بين الإخوة تأكل الأخضر واليابس.. فالنار تشتعل في النفوس قبل أن تشتعل على الأرض.. وهنا يكمن الخطر!

قال أحدهم وهو يحرك غصنًا يابسًا ويرسم على الأرض خريطة الأندلس:

«بلادنا أكلت نفسها قبل أن يأكلها أعداؤها.. فالمولَّدون والبربر والعرب والصقالبة والمستعربون والقيسية واليمانية كل هؤلاء يمكن جمعهم وتأليف قلوبهم كما ألّف الله بين قلوب المسلمين بعد أن كانوا قبائل متناحرة..»

قال سيدي أبو العباس مهمومًا:

«يا تُرى من سيكون الأسرع إلى إشبيلية ألفونسو أم ابن تاشفين؟»

حدَّق الجميع في معلمي وهو يقسم قائلاً:

«إن انتصر ألفونسو واستولى على إشبيلية فلن يكون ذلك آخر انتصاراته.. فلن تُحتل الممالك الإسلامية فقط.. لن تسقط الأندلس فقط.. ستسقط القدس أيضاً.. إنهم يتطلعون إليها!!»

«أفقر الفقراء من سُتر الحق عنه»

أبو مدين الغوث

كانت النار قد أوقدت في إشبيلية؛ احتفالاً بقرب ظهور هلال شهر رمضان ولإعلام الثمانية آلاف قرية المجاورة لإشبيلية بقدومه.. وعلَت التكبيرات من مسجد ابن عديس وبقية مساجد إشبيلية.. وتزامن ذلك مع سماعنا لأصوات صليل السيوف وقرع الطبول وضوضاء أقدام الجند والقادة الملثَّمين وتكبيراتهم..

يومها قال لي سيدي الخباز أبو العباس..

«اخرج واستطلع الأمر..»

خرجت فإذا الطرقات تضج بالناس.. وما أخرجني فقد أخرج كل أهالي إشبيلية..

أخذ الناس يمشون خلف جيش المرابطين.. اجتازوا التلال والهضاب.. ودار صناعة السفن ومشوا بمحاذاة نهر الوادي الكبير.. البعض وقف يتأمل أبراج المدينة وأسوارها التي اخترقها المرابطون.. والبعض وقف على الطاقات صامتًا ذاهلاً يفكر فيما حدث للسلطان الشاعر الفارس والذي كان يملك القدرة على توحيد الأندلس.. لكنه انشغل بدنياه عن دينه وفضّل حظ نفسه على حظ أمته وبلاده!!

تابعتُ المشي خلف السلطان المكبَّل بالقيود والسلاسل المحدق طويلاً في نهر الوادي الكبير، وقد عرفت بعد ذلك سبب تحديقه؛ فهذا

النهر هو الذي شهد ميلاد حبه لزوجته اعتماد الرميكية.. حين كان يتمشى هو ووزيره ابن عمار في مرج الفضة على شاطئ النهر وأنشد مرتجلاً شطر بيت..

«نسج الريح على الماء زرد..»

وكان معتادًا من رفيقه ووزيره أن يجيز الشطر الآخر من البيت ويكمله.. لكنه في ذلك اليوم عجز.. وظلاّ ساهمين ينتظران الإلهام.. إلى أن ردت على السلطان جارية كانت تغسل الثياب على النهر وأكملت الشطر الآخر قائلة..

«يا له درعًا منيعًا لو جمد..»

كنتُ أركض وأنا الطفل الصغير النحيل.. أشقُّ الصفوف ولا أحد يشعر بي لخفّتي.. ألحق بالسلطان المثقل بالأغلال في يديه وأقدامه.. رنين الأصفاد يحجب أصوات بكاء وحوقلة العامّة التي كانت تهمس:

«يالتعس السلطان المنعم.. يالحظّه السيّئ «

كنت أرقبهم وهم يجرّونه جرًا إلى السفينة.. وقد تلوثت ثيابه المعطّرة المزخرفة وصارت ممزقة بالية.. وقبل أن يصعد إلى السفينة تحاشى النظر إلى وجوه الناس المشفقة والشامتة في آن واحد.. ولكنه لم يملك أن يتحاشى النظر إلى محبوبته الأولى إشبيلية.. جنة الله في الأرض.. لهيب الفراق يشتعل في صدره ويلتفّ حوله من رأسه لأخمص قدميه.. ثم لا يلبث أن يتعمّق ويتعمّق حتى يُشعل دمه فيغدو بركانًا يحرقه من الداخل..

لم يعد يسمع أي أصوات حوله!!

لم تعنِه الجلبة والحشود التي تلاحقه بنظراتها..

كان يفكر بشيء واحد فقط.. وهو كيف سيحتمل الفراق؟

دفعوه إلى السفينة دفعًا.. فضاع في فمه الكلام وغار.. وتشتت روحه وحاول أن يودع إشبيلية بتلويحة من يده.. يده التي كانت تأمر فتُطاع.. يده التي لطالما قبّلها القاصي والداني.. يده التي كانت تُخفض وترفع.. لكنه لم يستطع أن يرفعها في تلك اللحظة.. فقد خانته.. بل خانه القيد!! وسقطت يده إلى جانبه كسيرة ذليلة.. كما تسقط ورقة من على شجرة وارفة..

كانت عيناه تحكي..

هل سيمُد الله في عمري.. لأعود ثانية إلى مرابع الصبا والشباب؟

أبحرت السفينة.. وتوارت عن الأنظار وبدأ الناس يعودون لبيوتهم..

تابعت المشي وراء الناس العائدين من شاطئ البحر.. كانوا يكبِّرون وأنا أكبِّر معهم بصوت اهتزت له أرجاء المدينة التي هلّلت لنصر المرابطين.. وقد تركوا ملكهم وراءهم.. ملكهم الذي حكمهم أكثر من عشرين سنة.. انتهى ملكه بين ليلة وضحاها.. ملكهم الذي كانت تفوح منه رائحة الطيب والبخور والعطور، وكان الناس يقفون ينتظرون مروره بثيابه المبهرة وجماله.. ملكهم وفارسهم الذي أتقن اللعب بأنواع السلاح بينهم.. ملكهم الأنيق الثياب.. الحسن القوام.. المخالف لأبيه في القهر وسفك الدماء.. ضاع ملكه بسبب انغماسه في الملذات وركونه للراحة.. هاهو يُطرد من المدينة ويؤخذ أسيرًا!!!

سرتُ مع السائرين.. ووجدتُ نفسي في قصر السلطان الذي فتحه المرابطون للعامة.. دخلت مع الناس المبهورين بما يرون!!

كانت المفاجأة!! كل ما كان يقال عن ترف السلطان وبذخه

شيء.. وما رأته عيناي في ذلك اليوم كان شيئًا آخر.. هالنا ما رأينا.. من نعيم وفُرش وستائر وأثاث ولباس ولوحات فنية تملأ القصر تقدَّر قيمتها بالآلاف.. القصر يعبق برائحة القرنفل والزهور..

كنت أتأمل الجنود الملثمين الذين لا تظهر منهم إلا عيونهم.. أتأمل لباسهم الصوفي الخشن.. وكانت الأسئلة تدور في رأسي عن سبب وضعهم اللثام.. وكانت الإجابة من سيدي الخباز..

«يا بني.. إن المرابطين لا يعتبرون الرجل كامل الرجولة إلا باللثام!! ويعتقدون أن الفم عورة يجب تغطيتها، وأن ما يخرج من الفم أخبث مما يخرج من العورة.. هم أبناء الصحراء يختلفون عنا نحن أهل الأندلس.. إنهم زاهدون في المأكل والملبس والمشرب..»

***

مع الوقت بدأت أألف حزني ويُتمي.. هذا الحزن جعلني أدخل لصومعة العزلة والوحدة.. أحيانًا كثيرة أتخيل طول المسير والزاد القليل.. كيف ستمضي هذه الحياة.. أتمنّى داخلي أن تكون حياتي قصيرة.. إلى أن رأيت تلك الرؤيا!

رأيتُ نفسي في أرض خصبة سهلة مخضرَّة والشمس تنسل خيوطًا من السماء.. ألبس عمامة وأكبّر، وخلفي جمع كبير من الناس يغطون السهل الأخضر على امتداده..

وتكررت الرؤيا وليس هناك من أحد أبوح له بما يجول في خاطري وصدري ولا أجد تفسيرًا لتلك الرؤيا وأنا الصغير الذي لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره..

ذات يوم لمحت سيدي أبا العباس يصلي.. إنه يفعل تمامًا كالذي فعلته في الرؤيا..

أُصبت بالغم والهم والفرح والسكينة معًا عندما رأيته! انتابتني مشاعر مختلطة لا أستطيع شرحها ولا فهمها.. لكنني عرفت أن الغم والكرب أصابني لأنني لا أتقن ما يتقنه.. وأما الفرح فللسكينة التي تلف روحي وأنا أراه يصلي.

أرقبه وهو يدخل متوضّأه ويستعد للقاء الله.. يسكب الماء البارد على أطرافه ورأسه.. يصلح هندامه.. يتسوّك.. يقف بوقار وخشوع.. يكبِّر كما كبَّرت في الرؤيا.. يناجي.. ينقطع عن كل ما حوله فلا يعود يشعر بأي صوت ولا حركة.. يركع فيتأنى في ركوعه وكأنه يُلقي كل الأوزار عن كاهله.. يسجد ويطيل السجود حتى إخاله لن يرفع رأسه.. يتلو القرآن ويترنم به وكأنما كل كلمة هي زهرة يتأمل حسنها وجمالها ورقتها ويستنشق عبيرها بروية.. يدخل إلى الصلاة وقد يبس القلب وجفّ ويخرج وقد تندّى وسُقي..

أنظر إليه وقد لملم جراحه وهمومه وكدره وألقاها في موضع سجوده فلا يرفع رأسه إلا وقد ابتلت الأرض وسقى جراحه رِضى.. فأرضاه الله وأنبت في قلبه يقينًا بالفرج..

صغيرًا كنت وجاهلاً لدرجة أنني لا أفقه ماذا يقول!! لا والله.. لقد كان أترابي يحفظون القرآن كاملاً ويقيمون الصلاة ويؤدّونها.. لكن لم يكن أحد يحفل بي ويعلمني!

كنت لا أعلم سر الأداء والحركات التي يقوم بها المصلي.. كانت تجعلني في حيرة من أمري وتطيل تأملي وأظنها ستكون منقذي ولكن كيف؟

كان يعجبني تورُّد الوجه وانسكاب الدمع الذي يطفئ الوجع لمعلمي وهو جالس بين يدي ربه.. كان يجلس فقيرًا محتاجًا عاجزًا

منكسرًا ذليلاً.. سمعته أكثر من مرة يقول «الذل والانكسار عند باب الله يفتح لك المغاليق»

وقال أكثر من مرة «إن اجتمعت لك الأسباب وبقيت كفك فارغة فاعلم أنك ركنت للسبب ولم تركن لرب السبب»

أسمعه يناجي ربه فأشتاق أن أفعل مثله.. يحيي الله ويسلم على نبينا محمد - ﷺ -.. أزداد ألمًا وشوقًا لأفعل مثله، وأنّى لي ذلك وأنا لم أتعلم حرفًا ولم أحفظ آية ولا أعرف القراءة ولا الكتابة!!

قبل أن يسلِّم يرفع يديه حتى يظهر ما تحت إبطيه.. يدعو فأراه فارسًا بسيف يحارب عجزه وحزنه ووجعه وقلقه.. يُسلّم فيغدو منتصرًا خرج للتوِّ من المعركة وقد قلّده ربه تاج الرضا والوقار ورتق جرحه بالإجابة.. يصلي فيتسع المكان على ضيقه!

يسجد فيصبح موضع سجوده صندوق أسراره وسجادة الصلاة ملاذه.. يتذلل وينكسر ليرتفع.. يبكي ويتودّد ليُفتح له الباب.. يناجي ويبوح لينجو..

كنت أراقبه لأيام وليالٍ طويلة ولا أجرؤ على البوح بما يدور في مكنون نفسي.. كنت سأحكي له عن الندوب التي تملأ روحي والرقع التي تنتشر على ثيابي.. عن اليتم المضاعف.. لكن الكلمات كانت عالقة في صدري وأنا الصغير الكسير.. لم أستطع البوح ولو بكلمة، ولكنه فهم من نظراتي وطول تأملي ما يدور في خلدي.. فقال لي:

«اليُتم بوابة العبور للمعالي.. فقد قطع الله كل حبالك مع الناس لتتمسك بحبله فقط.. فاعلم أن يتمك هو معراج الوصول إلى مواقع النجوم.. منع أن تسندك كل الأيدي.. ليسندك بيده.. فلو سندك أحدهم لعظُم في عينك وتعلق به قلبك.. لذلك أرادك الله خالصًا له..

ليصنعك على عينه.. يريد أن يربّيك لتكون قبلة قلبك له وحده.. وليس لأحد سواه»

ركضتُ نحوه.. وقفت قبالته صامتًا وقد ضاع الكلام فماذا أقول وأنا الصغير اليتيم؟!

ابتسم ابتسامة حنونة.. ضمّني تحت جناحه وأمسك بيدي؛ فشجعني على الكلام.. قلت:

يعجبني ترتيلك للقرآن.. دخولك على ربك خمس مرات في اليوم.. في المنام أرى رؤيا دومًا.. أراني أصلي وخلفي جمع غفير من الناس.. فأحزن لأنني لا أتقن الصلاة ولا قراءة القرآن..

كبّر سيدي ومعلمي.. الله أكبر.. الله أكبر.. وقال:

«هذه الرؤيا بشارة من الله يا بني.. سيكون لك شأن عظيم وسيتبعك ويأتمُّ بك خلق كثير..»

دمعت عيناه وأجلسني قربه ووضع يده على رأسي وقال:

«أن تسجد خمس مرات على سجادة الصلاة.. هذا ليس كل شيء.. فسجود البدن شيء وسجود القلب شيء آخر!! فالصلاة ليست مجرد حركات وآداء.. فالخالق سبحانه لا يريد بدنك.. إنه يريد قلبك.. فاعتنِ بقلبك.. نظفه من الشوائب.. ففي ميزان الله لا شيء يوزَن سوى قلبك.. وماء دمعك، إن لم يفِض من نار قلبك ما أخسره! وسجودك الطويل الذي أتعب ظهرك قفر، والخصب سجود قلبك أولاً.. لا سيادة إلا سيادة القلب.. فهو محل نظر الرب..

احرس قلبك يا بني بـ لا إله إلا الله محمد رسول الله.. غذِّ هذا القلب بالعلم عن الله.. فالعلم عن الله هو طريق النجاة.. به ستحمل قلبًا آخر يختلف عن قلوب الناس..

يا بنيَّ عندما تريدك الدنيا عبدًا.. افزع للصلاة.. بها فقط تصبح سيدًا..

بالصلاة تطفئ حرائق روحك.. وبالصلاة تتحرر من سطوة الفتنة والشهوة..»

لابد لك أن تعرف الله، ولن تعرفه إلا إذا سرت في طريق العلم، ولن تنهل العلم إلا بالسفر..

يا بني سأقول لك كلامًا لن تفقهه إلا بعدما تقطع شوطًا طويلاً في معرفة الله.. احفظ ما أقول الآن.. وستفقهه لاحقًا..

«اجعل صلاتك سيدة أوقاتك..

واصعد إلى حرائك وتبتّل

قل له إن سنابلك فارغة..

مُدّ يدك بيقين.. حينها ستعود ملأى..

قل لربك..

إني أسدلتُ الجفون على الدموع حتى لا يراها إلاّك..

وخبّأت التنهيدة التي جرحت الصدر؛ لأنه لا يحمل الضِّماد سواك..

اجمع ما تبعثر من لهف قلبك وشتاته..

انثره على بابه..

فلا شيء يجمع نثار القلب سوى الدخول في صومعة الآيات وتأملها..

حينها سيسكب الساقي في كأسك ما لم تذقه قبل.. وما لم يخطر على قلبك..

اِحنِ القلب تستقم القامة..

اجعل صُواعك في رحله.. ليعود ممتلئًا

وإياك أن تشعل الجذوة للنوافل وتكسل عن الفرائض

جدد صلاتك وبلِّل موضع سجودك بلؤلؤ الدموع.. تتدلى لك قطوف الجنة»

وكانت هذه هي الوصية الثانية التي أسمعها في حياتي!!

«من أَنِس بالخلق.. استوحش من الحق»
أبو مدين الغوث

صرت أجري وأجري صوب البحر.. ألهث ورائحة البحر تتسلل إلى أنفي وتحفزني أكثر أكثر..

كنت أشعر أن قلبي يكاد يتوقف وصدري يكاد يتمزق من شدة الجري والتعب.. كنتُ أشعر بأنفاس أخي وعيونه وهي تتبعني.. أسمع صوته وهو يأمرني بالتوقف والرجوع للبيت.. لكنني لم أجرؤ على النظر إلى الخلف لأنني أعرف أن أي التفاتة قد تكون القاصمة، وأنا كغزال شارد إن التفت صار لقمة سائغة للذئاب!!

كانت يداي وقدماي تتقدماني علّهما تنقذاني وتسرعان بي.. وكذئب جائع باغتني أخي وأمسك برقبتي حتى سال الدم منها!!

كان غاضبًا كالمجنون، ولم أتبيّن ما حصل ولم أعِ حتى سال الدم من رقبتي ووقعت على الأرض من شدة الجذبة.. حينها استلّ أخي سيفه وقد اجتمع عليه الغضب والتعب من ركضه طوال الليل خلفي في الأزقة إلى أن أدركني ورفع سيفه وألقاه في وجهي.. وإذ بي وأنا الصغير الضعيف الهشّ أرفع عصاي وأتلقى بها ضربة السيف.. فيسقط السيف من يد أخي ويُصاب بالوجوم والذهول!! فكيف لعصا أن تقف في وجه السيف!!؟

لم تكن هذه المرة التي أهرب بها.. فقد هربت قبل ذلك مرّة!!

أعود للوراء لأرى صورة نفسي وأسمع هواجسها وآمالها..

تعلق قلبي بالصلاة، فهي الحبل الوحيد الممدود لي في الدنيا.. ولكن كيف لي بتعلمها وأنا أقضي جُلّ وقتي في الفرن.. ولا وقت لدي لتعلم القراءة والكتابة ولا لحفظ القرآن!!

وفي ليلة استجمعت قواي وكسرت الحاجز الذي يضعه أخي زيد وصارحته برغبتي الشديدة في حفظ القرآن الكريم وتعلم العربية.. لكنه لم يعرني انتباهًا ولفّ وجهه كالعادة ولم يستمع لي!!

لقد حزّ الأمر في نفسي.. فأنا لا أطلب الكثير.. كل ما أتمناه أن أعرف أداء الصلاة وصيغة الذكر وتعلم القراءة والكتابة.. ولكن حتى هذه بخلوا بها علي.. فماذا بقي لي في هذه الأرض..

حينها اشتعلت في صدري النار وتوقد عقلي.. فتوصل لفكرة الهرب.. لابد من الهرب.. وخطّطت لذلك في ليلة ظلماء.. وخرجت أبتغي البحر، وعندما حان وقت صلاة الفجر وأتى أخي لفراشي ليوقظني للعمل وجد فراشي فارغًا.. فلحق بي أخي الأوسط ميمون وظل يركض ويتتبع آثاري إلى أن أدركني وعندها أشهر سيفه في وجهي قائلاً:

والله لأقتلنك شر قِتلة إن لم ترجع!!

فعدت خائبًا كسيرًا، وقد ثقل همي واشتد كربي وأطبقت السماء على صدري وزادت حسرتي.. لكنني كنت ألمح نور الله في صدري متيقنًا بالفرج.. وإن لم أنجح هذه المرة فسأنجح في المرة القادمة.. ولن يتخلى الله عني وأنا أقف ببابه وأطلب وصاله وأتمنّى قربه وأنشد لطفه ورحمته...

عدت إلى معلمي أبي العباس وأخبرته بما حصل لي.. فهدّأ من

روعي، وقال لي وصية من وصاياه التي لن أنساها ما حييت:

«رفقا بنفسك يا بني..

فحين يُهذَّب العشب بالمنجل يقوى..

وقد يكون الورد في قلب الشوكة..

والسقوط قد يكون إلى أعلى.. ولربما سُدّ باب.. ليفتح لك أبواب

وقد تكون النوازل حبل نجاة..

فلا ترسم شكل النجاة ولا ميقاتها..

دع ذلك للحكيم العليم..

وإياك أن تكون عصيَّ الفهم وتظنَّ بالله الظنون..

فالقمح لولا الرحى لم يُنثر!!

الله رحيم وحكيم.. وليس لك أن تضع علامة استفهام أمام أقدار الله.. فالله لا يُسأل عن أقداره..

أتلُ انكسارك عند بابه، وإياك أن تقف عند باب غيره.. فأبواب الغير مؤصدة وإن بدت مزينة..

ألقِ إليه دعاءك المرتجف.. أسمعه صوت أنفاسك الملتهبة.. قل يالله..

تذلل واعلم أن رضاه عنك برضاك عن أقداره.. حينها سيُجبر الكسر وتُضاء قناديل العمر»

وكانت هذه هي الوصية الثالثة التي أسمعها في حياتي...

***

وانطفأت النار في صدري وبقيت أعمل في الفرن مدة طويلة.. مدة كفيلة بأن ينسى إخوتي أمر هربي وكافية لتخفيف مراقبتي ومتابعة تحركاتي.. ثم وفي ليلة.. دعوت الله وتوسلت إليه ورجوته ألاّ

يردّني خائبًا.. فخرجت من أول الليل وسلكت طريقًا آخر غير الطريق الذي سلكته المرّة الماضية..

الآن أقف أمام أخي مرة أخرى.. وقد كُسر سيفه بعصاي!!

إن قلت لكم إنني تعرفت على أخي الأوسط في هذا اليوم فقد لا تصدقونني!!

لقد كان كالثور الهائج لا شيء يوقفه.. وعندما سقط سيفه ارتعب وسكن.. وكأن أحدًا أطفأ غضبه بالماء.. وفجأة تحول أخي إلى إنسان آخر.. وانبعث بريق آخر من عينيه.. بريق فيه عطف وحنوّ لم أره قبل ذلك.. اقترب مني وأنا أرتجف كعصفور وقع في مصيدة.. ربّت على كتفي وخمّنت أن قلبه رقّ لي.. وسألني بهدوء:

لماذا تهرب؟

أشحت بوجهي وبدأت دموع الصبي الصغير تسيل.. فصار يحدّق بي مستغربًا ويقول:

قل يا أخي.. قل ولا تخف.. وأعدكُ أنني سأساعدك..

قلتُ له:

أشعر نفسي كهذا البحر الهائج ولا شيء يهدئ نفسي إلا المسير نحو الله.. أريد الله.. وكانت في نفسي معانٍ كثيرة لم أكن أستطيع التعبير عنها آنذاك ولو عاد بي الزمن لقلت له:

«الله هو المؤنس في الوحشة وهو القريب عندما يتخلى عنك الأقربون وهو الذي يعين ويصفح.. أريد الله فاتركني..»

كنت لأول مرة أتأمل وجه أخي.. رأيته شابًا طويلاً نحيلاً جدًا.. شعره أسود أجعد وبشرته بيضاء نقية وعيناه ضيقتان وحادتان لكنهما في لحظة تتغيران وتصبحان واسعتين كالبحر عندما يهدأ!!

رجوته أن يتركني أخطو صوب الله وأتعرف عليه.. فلما رأى إصراري.. جثا على ركبتيه وبكى حتى تبللت لحيته التي نبتت لتوِّها وطلب مني أن أسامحه وودعني بعدما رفعني عن الأرض وقال:

«قم واذهب حيث شئت»

فركضتُ وركضت وأنا لا أصدق ما سمعت أذناي وقادتني رائحة البحر إليه.. وإذ بجمع من الناس ينتظرون قاربًا يقلهم صوب فاس.. أخذت أنظر إليهم واحدًا واحدًا.. علِّني أطمئن لأحدهم وأجد طريقة لأصعد معهم على ظهر السفينة.. حينها خرج شيخ جليل.. أبيض اللحية والثياب.. هادئ النظرة.. عيناه دافئتان حنونتان.. وسألني عن اسمي وحالي ومن أكون.. فأخبرته..

قال إذًا أنت يونس بن حسين الإشبيلي؟!! ابن شيخنا وعالمنا؟!!

هززت رأسي.. حينها تقدم نحوي وحملني وضمَّني وسط ذهول وحيرة المسافرين..

ثم قال للجمع:

«هذا الصغير ابن شيخنا حسين الإشبيلي رحمه الله..»

ثم أخذ بيدي ومشى صوب البحر.. وتركني على الشاطئ وركب مركبًا صغيرًا ثم عاد وقد اصطاد حوتًا.. فشواه وأطعمني.. ثم قال لي بعدما سمع ما سمع مني وصية من الوصايا المحببة إلى قلبي:

« أوصيك يا بني أن تنصرف للحاضرة حتى تتعلم العلم.. فالله لا يُعبد إلا بالعلم.. والعلم كالماء لا فائدة منه إن نزل على أرض سبخة مالحة.. والماء الزلال مهما كثُر لا يسيغ الحنظل؛ لذلك لا فائدة من العبادة إن لم تعرف من تعبد.. ولا فائدة من العلم إن كان قلبك لاهيًا!!

يا بني.. لا تتخيل أنك بالعلم وحده تصل لمرادك..

فكم من عالِم كان علمه نكالاً عليه.. وكم من عالم تعلم العلم لكنه لم يتعدَّ لسانه ولم يلامس شغاف قلبه..!!

القلب مملوء بالأهواء.. فإن كنت صاحب علم لابد أن تكون قادرًا على معالجة أهواء قلبك!!

فالهوى يغلب.. فإن غلب الهوى العلمَ.. حينها يكون العلم في أرض سبخة مالحة لا يمكن أن ينبت.. وإياك أن يكون حظك من العلم الشهرة والرئاسة والهيبة..»

أخذ قلبي يخفق بشدة.. وكان الشيخ في هذه اللحظة يدير ظهره استعدادًا للعودة إلى الخيمة..

لحقتُ به..

«انتظر أرجوك.. أريد أن أسمع منك المزيد»

لقد شعرتُ في تلك اللحظة بأن الله يدبر لي أمرًا.. حصل شيء في قلبي لم أستطع له تفسيرًا..

توقف واستدار وقال:

«حسنًا ماذا تريد أن تسمع؟»

«احكِ لي حكاية..»

ابتسم الشيخ وبدأ يحكي.. فأخذ المسافرون يتجمعون حوله.. لكنه كان يحكي ولا يلتفت لأحد.. كان يحكي وكأنه يوجه الكلام لي..

ضم ذراعيه على بعضهما وابتسم.. وحكى لي وللجمع عن قصة ذلك الرجل الذي قتل مئة نفس..

«كان رجل في الأمم السابقة قد قتل تسعة وتسعين نفسًا.. ثم فار

قلبه بالتوبة وندم على ما فات.. فسأل عن أعلم أهل الأرض فدلوه على راهب في صومعة قد انقطع عن الدنيا وما فيها.. يختلي بنفسه وأنس بعزلته مع ربه.. يقوم الليل ويصوم النهار.. فذهب إليه وحكى له قصته وسأله:

هل لي من توبة:

فاستعظم الراهب الذنب وقال له:

ليس لك توبة.. فأتمَّ الرجل به قتل مئة نفس!!

ثم اشتعل جمر قلبه مرة أخرى وأراد أن يطفئه بالندم والتوبة وتاقت نفسه لعفو الله.. فسأل عن أعلم أهل الأرض.. فدلّوه على رجل عالم فسأله:

هل لي من توبة؟

فقال العالم نعم!! فمن الذي يمنع الماء أن تطفئ الجمر؟!!

ومن الذي يُغلق باب الله في وجهك وقد فتحه لك؟!

باب الله لا يُغلق أمام الطارق.. فأكثر الطرْق.. مِلْ بقلبك وبدنك نحوه.. ابكِ.. تضرَّع وقل له:

يا رب زِنْ لي دموع الندم.. عندها سترى أن وزنها في ميزان الله عظيم.. عظيم ليمسح كل ذنوبك..

فتهلل وجه الرجل وسال دمع قلبه.. ثم أرشده لطريقة تعينه على التوبة والصلاح..

فقال له:

اذهب إلى القرية الفلانية.. فإن فيها قومًا يعبدون الله.. وفي منتصف الطريق أتاه ملك الموت.. واختصم فيه ملائكة العذاب وملائكة الرحمة.. فأرسل الله ملَكًا ليحكم بينهم.. فقال:

قيسوا ما بين الأرضين.. فإلى أيهما كان أقرب فهو من أهلها..
وعندما تم القياس وجدوا المسافة متساوية..
شهق السامعون.. وغلت قلوبهم حزنًا..
فأكمل الشيخ بعدما صمت قليلاً وهو يتابع السامعين..
ولكنه نأى بصدره صوب قرية الإيمان.. فقبضته ملائكة الرحمة!!
نأى بصدره!!
وبينما كان الشيخ يتحدث.. كنت أتابع كلماته فاغرًا فمي..
وبدوت للشيخ وكأنني لا أفهم ما يقول..
فقال وهو يشدّ على الكلمات بين شفتيه قبل أن يخرجها:
يا لرحمة الله.. يا للدهشة.. حركة قلبك قد تكون هي المنقذ!!
يا بني..
الإنسان ينتفع بحركة قلبه ولو عجز عن العمل.. والله في عون العبد مادامت حركة قلبه تتجه له وحده!!
والعابد يحرث أرضه فقط.. أما العالِم فيحرث العالم بأكمله!!
العابد ينزع السهام من خاصرته.. أما العالم فينزع السهام من خاصرة العالم بأكمله..
يا بني..
العابد يعبر القنطرة وحده.. والعالِم يكشف الحُجب ويسدّ الندوب ويأخذ بيد كل مفتون ويعرج بك حيث اليقين!!
خذ القلم يا بني.. وسطّر
فبه الله قد أقسم..
وصرير الأقلام يدير دفّة العالم ويبدّل الأحوال..
وشتان بين عابد يتجلى..

وعالِم بالعلم أتى بكل من تولى..

فصرير الأقلام مشكاة لصليل السيوف..

وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب..»

لقد أراحت هذه القصة روحي.. جعلتني أتيقن بصواب الطريق الذي اخترت.. فقد كان يُخيَّل لي أن العبادة هي غاية المقصد.. لكنني فهمت الصلة الوثيقة بين العلم والعبادة!!

هذه ليست مجرد قصة أو حكاية!! هذه إشارة ربانية لي من الله.. بأن العلم والعبادة جناحان لا تُحلِّق الروح إلا بهما..

والإنسان لا يهدأ ولا يرتاح إلا بالطاعة.. والطاعة لا أساس لها إلا بالعلم..

قد تصلي مئة عام وتحيد عند أول شبهة؛ لأن طاعتك لم تكن مستندة إلى معرفة الله..

وقد تتعرف على ربك وتتعلم عنه.. فإن كانت معرفتك دون طاعة وعبودية فلا قيمة لعلمك!!

«من لم يصبر على صحبة مولاه.. ابتلاه
الله بصحبة العبيد»
أبو مدين الغوث

هاهو البحر يدعوني ويفتح ذراعيه لي.. وقفتُ على شاطئه كثيرًا.. لعبت وسبحت.. مشيت على ترابه.. أما الآن فسأكون في اللجَّة.. تتجاذبني مشاعر كثيرة لم أكن كطفل أعرف ترجمتها آنذاك.. لكنني أذكر إحساسي المختلط ومشاعري المرتبكة.. فقد مرّ شريط حياتي القصير جدًا والذي لا يتعد الثلاثة عشر عامًا في هذه اللحظة.. بكيت كما لم أبكِ من قبل!!

اقترب مني الشيخ وقد لاحظ هبوط صدري وارتفاعه وشهقاتي المتواصلة.. فربّت على كتفي ومسح على رأسي وقال:

سأقول لك كلامًا وأعرف أنه كلام كبير على من هو في مثل عمرك.. ولكنك حتمًا ستفهمه بروحك النقية وقلبك الذي تعلق بالله وخرج ليتعرف عليه ويتعلم عنه.. ستفهم من نظرة عيني ونبرة صوتي «يا بني!

لا تلتفت إلى الوراء.. فما تركته لا يساوي شيئًا أمام ما تبحث عنه وستجده بإذن الله.. هاهي إشبيلية خلفك.. بترابها وأنهارها وقلاعها وحصونها وأسوارها.. بالصور والذكريات التي تعشِّش في تلافيف ذاكرتك.. بمعلمك الخباز الذي رعاك وأحبك.. بالأمان

والحنان الذي أسبغته عليك مربيتك وأمك الثانية.. بقبر أمك وأبيك.. بإخوتك.. كل هذه المحبوبات تشدك للوراء.. فإن أردت حياة قلبك ونجاته فلا تقدم محبوبًا على الله.. اجعله محبوبك الأول والآخر.. وما بين المحبوب الأول والآخر اترك الحبل رخوًا لا تشده أبدًا.. فإن أحببت شيئًا أكثرَ من الله ابتلاك به؛ فالله يريدك خالصًا له!

لا صلاح لحياتك إلا إن كنت خالصًا لله.. فلا لذة تفوق لذة الأُنس به ومناجاته..

اجعل الشوق لمعرفة الله يسبق كل الأشواق ويتقدمها.. حينها ستعرف كُنه ما أقول.. واعلم أن الدعاء يغيِّر الأقدار، فالزم باب ربك تذوب همومك ويُطوى ذنبك ويُرفع شأنك..

وقت الرحيل يا بني هو الوقت الذي نعرف فيه معنى الوطن.. والوطن الحقيقي في قلبك.. فأينما تجد راحة لقلبك وحبلاً ممدودًا لربك فأنت في وطنك..

واعلم أنه لا شيء يرهق قلبك ويستنفد قدراتك وطاقتك كالكره والحقد.. فادعُ الله أن يملأ قلبك حبًا وخيرًا..»

وكأن شيخي لاحظ أنني قفزت عن إخوتي ولم أتحدث عنهم.. وعندما سألني عنهم.. تحدثت دموعي.. فقال:

﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾

إياك أن تخوض معركة تكفَّل الله بها مع من آذاك..

فلا تترك قلبك نهبًا للكره والبغض..

خُض معركة مع مشاعرك القاتلة.. حطمها بفأس إبراهيم كما حطم التماثيل..

بعض المشاعر تستنفد مخزونك وتأخذ من جمال روحك وعافيتك.. تفتك بك ببطء..»

وكانت هذه هي الوصية الرابعة التي أسمعها..

***

وانطلق القارب وكنا على مشارف فصل الشتاء والأمواج صاخبة في البحر.. ورويدًا رويدًا غابت إشبيلية عن ناظري وهدأت الأمواج.. وغفا كل من في القارب ونام.. أطفالاً ورجالاً ونساءً، وبدأ البحر حديثه المسائي مع السماء وارتدى أجمل ثيابه.. حينًا يهمس همسًا بموجه الهادئ، وحينًا آخر يعلو صوته.. وبدت النجوم مستمعة لحديث عاشقها..

تساءلت في تلك اللحظة والتي لم أكن أعرف التعبير عنها.. كم من القصص سمعها البحر وخبأها في أعماقه؟

كل موجة تحمل قصة ما.. فذاكرة البحر لا تبهت.. ذاكرة البحر سلال ملأى بالحكايات، أتذكر الآن تلك القصة التي حكاها لي سيدي الخباز عن انشقاق البحر لسيدنا موسى عليه السلام «ضرب سيدنا موسى البحر بعصاه فانفلق وصار يبسًا ودخل سيدنا موسى في وسط البحر فتغيرت النواميس له.. تغيرت لقلب أيقن بفرج الله ووعده.. فجمد الماء السائل ليكون جبلين كبيرين عن اليمين والشمال يعبر بينهما بنو إسرائيل..

وكلما تقدم موسى.. تراجع الماء وصار كسور له ولقومه عن أيمانهم وشمائلهم.. وما أن أدركهم فرعون حتى نفذ أمر الله بالإغراق..»

بقيتُ مأخوذًا بتلك القصة.. أستعيد تفاصيلها.. شعرتُ بأن الله يوحي لنا بأن ذاكرتنا يجب أن لا تبهت.. علينا أن نتذكر تلك القصة دومًا..

وكأن الزمن لم يمشِ على معاركنا..

فمعاركنا لم تتغير وعدونا لم يتغير وطبيعة المعركة ووجهتها هي ذاتها من لدن موسى عليه السلام إلى يومنا هذا.. بل إلى قيام الساعة!

معاركنا تتشابه وتتماثل.. تتكرر ذات الحكايات وتتغير الملامح فقط!!

ففرعون موجود في كل عصر.. والعبيد مازال ديدنهم الانحناء فهم لا يتقنون سواه.. لكن ينبغي أن نتقن بشارات النصر.. فبشارات النصر تملأ الكون.. لكن بني إسرائيل لم يروا هذه البشارات.. لأنها أعلى سقفًا من نظرهم المحدود..!!

نجا بنو إسرائيل من فرعون.. وغرق فرعون وقومه أمام أعينهم.. لكنهم لم يستشعروا ما رأته أعينهم!!

لم ترِقّ قلوبهم..

لقد قلب الله لهم سنن الكون.. ودبّر النجاة في اللحظة التي ظنوا فيها الهلاك.. نصرهم الله في اللحظة التي غلب على ظنهم أنهم سيُهزمون.. ولكنهم لم يروا النصر!!

ما أصعب أن يكون كل شيء أمامك خارقًا للعادة والنواميس ومع ذلك لا تملك قلبًا يصغي لنغمة الكون التي تعزف لحن التحرير والنصر!!

كيف تجف القلوب وتيبس.. لدرجة أن تتحجر؟!!

أستعيد قصة سيدنا موسى وغرق فرعون.. أستعيد تلك اللحظة في البحر.. كان المعنى مجازًا بعيدًا عني.. وكان التعبير عما يجول في صدري ضربًا من الخيال، وأنا الصغير الذي لا يتقن القراءة والكتابة.. فلا حرف يحتوي ما يعتمل في صدري..

هاهي المعاني تعود وقد أرخى الله لي حبله وطوّع حرفي لأكتب الآن.. رائحة ما كان!!

وعاد صوت سيدي الخباز مرة أخرى.. هادئًا.. متناغمًا مع أمواج البحر..

«بشارات النصر لا تُرى بالعين المجردة يا بني.. وإنما بالقلب!!

فاعتنِ بقلبك يا بني..

وأصغِ لوعد ربك..

فالأشياء العظيمة لا تُرى إلا بقلب يشدك إلى السماء ويقطع أسبابك من الأرض..

الرِّق قد استفحل!!

هذا صحيح.. فالرقيق يتسابقون في مضمار الذل والعبودية ولولاهم لما كان هناك فراعنة!!

لقد انقلبت المفاهيم والمعاني.. وأضحت العبودية والرق هي الحرية والنجاة!!

والرق درجات يا بني.. أعلاها الذين يخدمون أكثر من سيد ويدينون بأكثر من دين.. وأما الذين في الدرك الأسفل فهم الذين ينفخون أبواق الطغاة بالمجان..

وهناك صنف يستمرىء الذل ويستلذ بالقيد.. فحتى لو كسرت قيده أعاده!! وهؤلاء لن يضرّنا كيدهم شيئًا.. وهؤلاء من عرّاهم الله وقت تبديل المواقع والثياب.. فانكشفت عوارتهم.. فتخففنا منهم وأنّى لهم أن يلحقوا بركب النور والتحرير..»

***

ولم أصح إلا وأشعة الشمس تنسل خيوطها وتمسح على وجهي..

وصلنا إلى فـاس، وذهب كل من في السـفـينة إلى طريقـه، ولم أعـرف أيَّ طريق أسلك وإلى أي وجـهـة أتجـه، ولم يكن أمـامي إلا الجوامع.. فبقيت أمشي وأتأمل هذه المدينة الجديدة.. بيوتها المبنية من الآجُرِّ والمزيّنة بالفسيفساء.. حجارتها المنحوتة بمهارة ودقة.. أمشي على الأروقة المبلطة بمربعات الزلييج البهية الألوان..

أرفع رأسي حينًا فأرى الأسقف الملونة بألوان اللازورد وألوان مذهَّبة تخطف الأبصار.. أرى الغسيل يرفرف على الأسطح الخشبية وأسمع همس النساء وأحاديثهن المتسربة من الأسطح الفسيحة التي تهرع لها النساء بعد يوم شاق..

الدُّور في فاس تتألف من طابقين أو ثلاثة، وكل طابق له شرفات كثيرة، وكما في إشبيلية ساحات الدور مكشوفة والحجرات تلتف حول خصرها وتطوقها وأبواب البيوت وأسوارها عالية جدًا..

عرفت أن في فاس ما يقرب من السبعمئة جامع.. فإلى أيهما أذهب؟

بقيت أمشي ولا أعرف وجهتي.. في هذه اللحظة شعرت بأنفاس أبي تدلني على الطريق.. أبي الذي أفنى حياته يلمّ الشمل وينظم عقد الأندلس.. أبي الذي أتمنى أن أكون مثله فقيهًا.. ثائرًا يطلب الحرية والعدالة.. عالمًا يطلب مرضاة الله.. أبي الذي ضاع دمه ولم يعرف أحد قاتله..

وهداني الله إلى جامع فاس المزدان بأعمدة رخامية والمغطّى بالحُصر الملونة المنسوجة بمهارة وإبداع، ورنّ صوت سيدي الخبّاز في أذني وهو يحكي لي عن سبب تسمية هذه المدينة بهذا الاسم فقال:

«لقد عُثر في أول يوم شرعوا في بناء هذه المدينة على فاس

ذهبي».. دخلت الجامع.. حيث جمع غفير يتحلقون حول شيخ كبير.. قلتُ في نفسي لابد أنه شيخ عظيم ولهذا اجتمع حوله هذا العدد من الناس كما تجتمع الأشجار حول الماء لترتوي.. كان يتحدث الشيخ بكلام يبدو أنه جميل ولكنني لم أفهم شيئًا منه.. لم أستطع أن ألتقط ولا معنى يرسخ في قلبي.. وشعرت بالكدر والضيق!! لماذا لا أفهم؟

هل بلغ بي الغباء مبلغًا كبيرًا؟ أهو جهلي وقلة معرفتي؟ أم أنهم يتحدثون بلغة لا تشبه لغتي؟

لا إنهم يتحدثون العربية مثلي!! فلماذا لا أفهم ما يقولون؟ لماذا تستعصي علي الكلمات وتصعب؟

وبقيت أجالسهم فترة من الزمن لعلي أفهم بعضًا مما يقال.. كان الدرس يبدأ مباشرة بعد صلاة الفجر وتستمر الدروس طيلة النهار لا يقوم المريدون والطلاب من أماكنهم إلا للوضوء والصلاة، وكان الطلاب والمريدون يتوضؤون لكل صلاة، ولم يكن الشيخ يقبل وجود أي طالب إلا بعد التأكد من طهارته.. فالعلم عبادة، والعبادة لا تصح بدون طهارة، وأي عبادة أجلّ من العلم!!

كان المسجد مكتظًا بالطلاب ومع ذلك لاحظني الشيخ وعرف أني غريب بلا أهل وعرف أنني لا أتقن وضوءاً ولا صلاة فأولاني اهتمامه وجعلني مقصده الأول في هذا الجمع.. فمهما بلغت من العلم والتفَّ حولك الناس فهذا لا يساوي شيئًا إن لم تعرف حاجة شخص صامت!!

وما فائدة كل الخطب والكلمات إن لم تجد قلبًا يستشعرها؟ وما فائدة الجموع إن لم يكن هناك شخص واحد يحوّل الكلمات إلى واقع.. عرف هذا الشيخ أنني أبحث عن حبل ومنجد ينجدني..

كان تعلُّم الوضوء والصلاة هو الحدث الأكبر في حياتي.. يوم ميلادي الحقيقي.. عندما عرفت باب ربي وأحببته وتوددت إليه وشكرته على ما أنعم علي..

ولكنني بقيت لا أفهم ما يقول الشيخ، وهذا دفعني للخروج من هذا الجامع؛ لأبحث عن جامع آخر.. وبقيت أتنقل من جامع لآخر.. ومن حلقة لأخرى.. ومن درس لآخر.. إلى أن ساقتني عناية الله ورحمته إلى شيخ شقّ كلامه قلبي كما شقّ موسى بعصاه البحر.. فلما سألتهم عنه قيل لي إنه أبو الحسن بن حرزهم.

«أضر الأشياء صحبة عالم غافل.. أو صوفي جاهل أو واعظ مداهن»

أبو مدين الغوث

عندما دخلت مسجد «القرويين» سمعت صوته ولم أره!!

لم يكن يجلس على كرسي خاص به كما يفعل الخطباء والوعاظ.. بل كان يجلس وسط الناس.. الناس يلتفون حوله كما يلتف الماء في دوائر بعد إلقاء حجر فيه.. كل دائرة تولِّد دائرة أخرى وما تلبث الدوائر أن تتسع وتتسع حتى تغطي صفحة الماء.. وهكذا بدا تأثير الشيخ على مستمعيه.. كلما سمعه أحدهم جرّ وراءه الآخرين.. حتى اكتظت جنبات المسجد بالجموع التي تتغشاها الرحمة والسكينة والمحبة..

كل من يستمع للشيخ ابن حرزهم يتعلق به قلبه.. فهو يشعر بأن الكلام موجه له وحده.. يخاطبه وحده.. كانت إيماءات الناس تشير إلى تلهفهم لسماع المزيد.. وعلى الرغم من الهدوء والسكينة التي تعم المشهد.. إلا أن هذه الجموع يمكنها أن تتحول وبإشارة واحدة من الشيخ إلى جموع هادرة تنفذ ما يقول الشيخ!!

لا أدري حقيقة ما الذي أثار انتباهي لابن حرزهم في بادئ الأمر!! لماذا شق قلبي ودخل؟

أهو مظهره الذي يبدو مختلفًا عن كل من رأيتهم يجلسون للوعظ والخطابة؟

أم كلماته ومنطقه المختلف عن كل من حوله؟

أم ابتسامته الهادئة وعيناه الحنونتان الدافئتان وأدبه الجمّ؟

كان أغلب من يتصدر لدعوة الناس يلبسون الصوف والخِرق من الثياب.. يلبسون البالي الرخيص.. يزهدون فيما يلبسون ويأكلون مع أنهم قادرون على لبس أجمل الثياب وأكل ألذّ الطعام.. فقد كان بعضهم يأكل الأعشاب ويقدم للناس اللحم والعسل!!

قد يكون ما لفت انتباهي في هذا الشيخ بادئ الأمر جمال وحسن هندامه.. ثم عندما سمعته يردّ على من يعيب عليه جمال ثوبه قلت في نفسي هذا الذي أريد..

قال أحدهم مستغربًا:

«شيخ جليل ويلبس أفخم الثياب!! الله لا يعبد بمثل هذه الثياب يا شيخ!!»

ابتسم الشيخ وسط دهشة الناس لما سمعوه واستدار صوب السائل وقال:

«حسنا يا بني.. وهل النبي - ﷺ - كان يلبس البالي من الثياب؟ هل كان يلبس الصوف والخِرق؟

سكت السائل.. بينما حشود الناس تنتظر سماع الجواب..

فأكمل الشيخ قائلاً:

«يقول تعالى ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾

الأصل هو التزين يا بني..

والرسول - ﷺ - كان يلبس أبهى ما عنده للوفود.. فهذا فيه تفخيم للإسلام وغيظ للأعداء.. فالتجمُّل ديدن الرسول وصحبه..

يا بني إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده وابن عباس -

ﷺ - تعرض لما أتعرض له الآن.. حيث انتقده أحدهم وعاب عليه تأنُّقه ولباسه الجميل فردّ عليه:

«لقد رأيت رسول الله أحسن ما يكون من الحُلل، وكان يحب الحبَر من القماش، وهذا لا يتنافى مع التدين الحق.. بل هذا مما يحبه الله ورسوله!!»

وبينما كان الشيخ يتحدث.. كنت أراقب قسمات الوجوه وهي تتعلق بكلماته:

«إن الله جميل يحب الجمال.. الكِبر بطر الناس وغمط الحق»

لبس الخرق لا يقربنا من الله.. ثم ومن قال إن التدين في لبس الصوف؟

وهل الزهد في القشرة الخارجية؟

هل الزهد في التقشّف بالمأكل والمشرب؟

يا بني إن صلاح القلب والجوارح أهم من الابتذال والتقشف في الثياب والطعام..»

قسمات الوجوه المتعلقة بالشيخ بدأت تتحول من الدهشة.. إلى الامتنان والراحة..

يبدو أن الإنسان يرتاح عندما تتحول تعاليم الإسلام إلى سلوك واضح.. ويرتاح عندما تصبح الأفكار المجردة واقعًا مَعيشًا..

رحت أحدِّق في الشيخ مبهورًا بمنطقه وفهمه العميق للتدين والقرب من الله.. ولم يكن مظهره هو الذي أخذ بلُبِّي فهذا ما هو إلا قشرة ظاهرة فقط!!

ثم بدأ شيء آخر يلفت نظري في هذا الرجل النحيل الطويل الآدم البشرة ذي الصوت الهادئ الرخيم الذي يتسلل إلى شغاف القلب..

فهذا الشيخ الهادئ يتحول إلى رجل يقلب الموازين ويقف أمام السلطان دون أن يجرؤ السلطان على مخالفة رأيه!!

فقد كانت المدينة تغلي على ابن برّجان الفقيه العالم المفسر الذي تنبأ بفتح بيت المقدس في السابع والعشرين من رجب من عام ثلاث وثمانين وخمسمئة.. لم يكن ما توصل إليه كرامة أو مكاشفة إنما مجرد استقراء من آيات سورة الروم.. كان يقرأ ويستنبط ويستقرئ.. ولأن حال الأمة من الوهن والضعف كان كبيرًا فقد قامت عليه القائمة، ولأن كلٌ ذي مكانة محسود فقد وشى به من يدَّعون العقلانية إلى السلطان وعقدوا له مجلس مناظرة وواجهوه بما عليه.. فردّ عليهم وأجاب وخرّج المسائل.. لكنهم لم يفهموا غرضه ومقصده ولم يصلوا إلى فهمه.. فمات بعد أيام.. حينها أمر السلطان أن تُلقى جثته في مزبلة ولا يُصلّى عليه!!

فما كان من ابن حرزهم إلا أن أمر الناس قائلاً:

«احضروا جنازة الفقيه العالم الزاهد ابن برّجان ومن قدر على حضورها وعرف فضل ابن برّجان ولم يحضر فعليه لعنة الله.. ولم يعقب السلطان على أمر ابن حرزهم ولم يراجعه في الأمر.. بل صمت!!»

حينها عرفت أن قول الحق قيامة.. خاصة إذا قيل للطغاة!!

عندها يحدث الفرق..

فأن تقف أمام طاغية.. فهذا يعني أنك وقفت أمام كل الطغاة من لدن فرعون إلى قيام الساعة.. فالطغاة ديدنهم واحد.. ولا جديد في مشهد الطغيان.. إنه يتكرر دومًا بأسماء مختلفة.. وضحايا مختلفين فقط!!

وكل طغيان هو إعادة للمشهد الأول.. لكن الجديد.. أن كل كلمة حق تقولها هي بعث للناس من مرقد الخوف والضعف والصمت.. الناس يُبعثون بكلمة حق.. فيسلكون الطريق بلا وجل، وهكذا كانت كلمة ابن حرزهم!!

«بالمحاسبة يصل المرء إلى درجة المراقبة»
أبو مدين الغوث

أمشي وتغمز لي فاس فتغويني للمسير والتأمل.. لم أسر في أزقتها منذ وطئتها قدماي.. وقد يكون هذا لقائي الأول بها.. وما زلت أشعر بتلك الرعشة.. رعشة الحب والشوق لذلك اللقاء.. أسير فتهبّ علي نسائم نهر الرقراق إذا وليت وجهي غربًا ونسائم نهر إيتاون إن وليت وجهي شرقًا.. وتتخللني رائحة الياسمين والورد الدمشقي والليمون والأترجّ كما يتخلل العطر قطعة قماش.. فينسل بين عروقي وأوردتي!

وصرت كل يوم أذهب إلى جامع القرويين.. هذا الجامع الذي أبهرني بأبوابه الكثيرة التي أخذت أدور حولها وأعدّها.. فإذا هي ثلاثون بابًا كبيرة.. دخلت من الأبواب العالية جدًا.. ولا أدري إن كانت عالية فعلاً أم أنا صغير وقصير!!

تقدمت قليلاً داخل الجامع.. نظرت في أرجائه.. خطفت بصري مصابيحُه الكثيرة جدًا والتي لم أستطع عدّها، لكنني عرفت فيما بعد أنها كانت تناهز التسعمئة سراج..

ينبعث صوت الشيخ ابن حرزهم من الحجرات الداخلية.. أخذت أقترب وأقترب.. شعرت أن نورًا يغمر صدري.. فجلست فإذا بفتيان بمثل عمري يقرؤون القرآن ويستظهرون مع شيخهم ما حفظوه، ويقوم الشيخ بكتابة الآيات على ألواح كبيرة ثم يبدأ بشرحها..

عندما دخلت كان يشرح قوله تعالى ﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾

قال:

«هؤلاء الذين حبسهم العذر..

لقد بلغ هؤلاء بدمعهم ما بلغه المجاهدون بدمهم.. دمع هذا المحبوس الذي منعه العذر وقلة ذات اليد.. يساوي في ميزان الله وزن دم المجاهد في الميدان!!»

فغرت أفواه المريدين.. وتعجبوا مما يقول شيخهم..

فأردف قائلاً:

«نعم.. لا تستغربوا ذلك.. يتساوى دمع القاعد مع دم المقاتل المجاهد إن أخلص النية لله!!

النية تسرع بالعمل وإن حبا.. والقلب هو الذي يفتر ويشتعل ومعالجة القلوب أشدّ وأصعب من معالجة الجراح..

قد تكون على فراشك فتحملك نيتك إلى مراتب الشهداء.. وقد تركب خيلك وتكون في ميدان المعركة فتكبو بك نيتك!!

القلب هو ساحة المعركة الحقيقة.. فالصراع بين الشهوة والإيمان يجري هناك!

كم معركة خاض جسدك مع قلبك؟ كم شهوة أطفأتها وكم شهوة أطفأتك؟

يا بني.. اعتنِ بقلبك جيدًا.. تفقد أرضه.. نظفه من الشوائب.. تفقد حركته وانتبه إلى أين يشير.. نقّح نيتك وارتُق المثقوب منها لتبلغ.. ولا تعوّل على كثير العمل.. فربّ عمل صغير مع انكسار

وتذلل أدخل صاحبه الجنة.. ورب عمل عظيم أقعد صاحبه لأنه لم يُنقَّ من الشوائب!

واجعل عين الله هي الرقيب عليك.. وتجنب السقوط.. وأعظم السقوط أن تهتم بوزنك عند الناس لا عند رب الناس!!

واعتنِ بصورتك عندما تكون وحيدًا لا يراك إلا الله؛ فالماء الزلال إن أصابه لَون أو طعم فمصيره أن يُراق!

وكما صنعت مرآة لترى فيها وجهك كل يوم.. لابد أن تصنع مرآة لقلبك لترى ما فيه من تشوهات وأمراض.. أعد ترتيب أولوياتك.. تعهده بالمراقبة وإزالة الحقد والكِبر والحسد والعلو.. أوصد بابك حتى لا تنكشف عوراتك.. ادعُ أن يكون السواد فيه مجرد شامة.. وتذكر أن للقلب سهمًا يُطلق لحظة الغضب.. استشعر رنة السهم قبل إطلاقه وأرجعه لقوسه!»

دخل كلامه قلبي.. وثبت في وجداني وشعرت بأن شمعة أضاءت روحي.. اقتربت منه وقبّلت يده.. فسألني من أين أنت يا بني:

فأخبرته عن نفسي وقصصت عليه قصتي وطلبت ملازمته حتى أتعلم منه..

ثم نادى على الفتيان وقال لهم:

نلتقيكم الليلة في حفل تخريج أخيكم (إدريس)

خرج الفتيان سريعًا من الجامع فاقترب الشيخ مني وقال لي:

سآخذك اليوم معي إلى الحفل.. وفعلاً اصطحبني معه، وكانت هذه الليلة من الليالي التي لا أنساها في حياتي قط.. فقد جاء الفتى الذي يقاربني في العمر على ظهر فرس أشهب مطهّم مزيّن وقد لبس

ثوبًا حريريًا أبيض وارتدى عمامة بيضاء وكأنه ملاك نازل من السماء وخلفه كل الفتيان الذين كانوا في حجرة الدرس يمتطون خيولاً بيضاء وسوداء وشهباء ويلبسون ثيابًا مزركشة حريرية ملونة.. خضراء وزرقاء استعاروها من القصر، وكانوا ينشدون أناشيد جميلة جدًا في مدح الرسول - ﷺ -.. وتعظيم الله..

وأخذ الموكب يطوف في الأحياء والنساء على الشرفات يلقين الورد على المارة إلى أن وصلنا إلى بيت أبي إدريس حيث كان هناك جمع كبير جدًا من الرجال.. خُيل إليّ أن كل فاس قد أتت لتحضر الحفل.. أصدقاء وأقارب أبي إدريس يحملون الهدايا لإدريس ولشيخه وجلسوا جميعًا على موائد منخفضة مليئة بأطايب الطعام والشراب وعلى رأس ذلك الكسكس الموضوع في قِدر كبير جدًا والمزين بقطع اللحم وبجانبه قدور فخّارية مليئة بالمرق واللحم.. والكثير من البطيخ والعنب والحلوى..

كان الاحتفال مهيبًا عظيمًا يجمع الأخوال والأعمام والأصدقاء والجيران.. وبدأ إدريس بترتيل آيات القرآن بصوت عذب يأسر القلوب.. فقد أتم إدريس حفظ القرآن في ثلاث سنين غيبًا عن ظهر قلب.. تقدم الأب والأخوال والأعمام وجمهرة كبيرة من الناس بالهدايا للشيخ؛ لأن الشيخ لا يتقاضى أجرًا على تعليم الصبيان القرآن طيلة السنوات الماضية..

غالبتني دموعي في تلك اللحظة وقلتُ في نفسي: «ومن الذي سيكرّم شيخي وأنا المحروم من الأب والأهل» وعاهدتُ نفسي في تلك اللحظة أن أُتم حفظ القرآن بسرعة..

في اليوم التالي طلب مني الشيخ أن أقرأ عليه ما حفظت من

القرآن.. ففعلت ذلك دون أن أتلعثم وبترتيل جميل قرأت الفاتحة والمعوذات فوضع يده على رأسي قائلاً:

«ما شاء الله.. أرى أنك ستحفظ القرآن كاملاً وبسرعة والله لا يخيب ظني..»

وخط الشيخ الآيات على اللوح ورددنا وراءه فحفظتها خلال دقائق معدودة فاندهش الشيخ فاقتربت منه وطلبت أن يحفظني آيات أخرى فحفظتها أيضًا وهكذا.. فما انتصف النهار إلا وكنت قد حفظت نصف جزء فذُهل الشيخ وعرفتُ ذلك من نظراته ودعائه لي..

في الأيام التالية ناداني الشيخ وقربني إليه وقال:

«سأعلمك القراءة والكتابة جنبًا إلى جنب مع حفظ القرآن الكريم» وأخذ يستظهر لي ما حفظته بالأمس فوجدني ذاكرًا غير مضيّع وكان يفعل ذلك كل يوم.. فتعهدني بالرعاية والتعليم، فما أتممت سنة إلا وكان القرآن محفوظًا في صدري وحذقت القراءة والكتابة ولحقت إدريس وبقية أقراني..

إدريس كان عيني التي أرى بها فاس.. فما أن ننتهي من الدروس حتى نخرج سويًا.. نتجول في المدينة التي أحببتها بعيني وبأحاديث إدريس عنها.. كنتُ أمتلئ دهشة لمجرد مرافقته.. ففي جعبته الكثير من الحكايات.. قال لي ذات مرة:

«هل تريد أن تعرف سبب تسميتي بإدريس؟»

نظرت إليه نظرة موافقة..

قال:

«سمّوني إدريس تيمنًا بمؤسس مدينة فاس.. صمت قليلاً وهو يتأمل المدينة.. ثم تابع كلامه..

«مدينتنا القابعة على المحيط الأطلسي المنحدرة الجوانب والمستوية من الوسط أسسها إدريس، وقد مات في ريعان شبابه.. كان عريسًا وزوجته القوطية المسلمة في بداية حملها، وعندما ولدت ولداً اسموه على اسم أبيه.. وتولاه بالرعاية مولى والده فنشأ على الفروسية والشجاعة وحب العلم والجهاد.. وعندما كبر قرر أن يؤسس مدينة أخرى فمدينة أبيه ضاقت بمن فيها.. ولما مات إدريس الثاني.. بنى أحد أبنائه مدينة أخرى في الجهة الغربية من مجرى النهر فصار هناك مدينتان ومع مرور الزمن تناوشت المدينتان واشتعلت الحرب بينهما وسالت الدماء فجاء يوسف بن تاشفين ووحد المدينتين في مدينة واحدة وهدم السور الذي بينهما وبنى الجسور بين المدينتين ليسهل المرور بينهما..» وكانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن ابن تاشفين في فاس..

في كل يوم كان لنا حكاية مع بعضنا البعض.. أحيانًا نخرج بعد الدرس مباشرة وأحيانًا أخرى يأتي يوم الجمعة فما أكاد أفتح عيني إلا وأجد إدريس ينتظرني خلف الباب وقد أحضر معه الزبيب والخبز وبعض الفاكهة وأحيانًا أخرى يأتي ومعه حساء القمح وفي أيام الشتاء يأتي بخبز الحنطة وفي داخله لحم مملّح نضج معه..

توطدت علاقتي مع إدريس منذ يوم ختمة القرآن.. حيث عرفتْ أمُّه أني يتيم الأم والأب وأنني أندلسي غريب الديار لا أهل لي ولا خلّان.. وأنني طالب علم جئت فاس لأتعلم القراءة والكتابة وعلوم القرآن؛ فكانت ترسل لي مع إدريس طعامًا وإن لم ترسل طعامًا كانت تحرص على إرسال لبن في وعاء خشبي له مطوّقة حديدية.. فقد كان أبو إدريس يشتري اللبن من البقارين ودكانه مليء بآنية (الميورقي)

المزخرفة.. يبيع اللبن في الصباح وما تبقى في المساء تصنع منه أمه الزبد ويتركون البعض الآخر حتى يتحمّض ويبيعونه للناس لبنًا حامضًا لذيذًا ويكون لي نصيب فيه كل يوم تقريبًا.. وكثيرًا ما كانت أم إدريس تدعوني لأشاركهم طعام الغداء فأجلس معهم على مائدة واحدة..

وهكذا هم أهل فاس عمومًا يتكفلون بمعاش وسكن وأكل طالب العلم الغريب لمدة سبع سنوات كاملة..

***

في تلك الجمعة وبعدما أفطرنا أنا وإدريس.. أخذني إلى ضاحية يسكن فيها أهالٍ مهجَّرون من مدينة تامسنا.. بعدما هاجمهم يوسف بن تاشفين وقضى على أميرهم البرغواطي، وهلك أناس كثر من أهل هذه المدينة.. فقد هربوا من جيش ابن تاشفين وغرق بعضهم في نهر أبي الرقراق وبعضهم هرب للجبال الوعرة التي لفظتهم فسقطوا من أعاليها ودُقت أعناقهم، والقليل الذي بقي منهم فقد سكن في هذه الضاحية..

فسألتُ إدريس عن هذا البرغواطي ولماذا هاجمه ابن تاشفين؟

فأخذ يقص علي الحكاية وهو مستمتع بالسرد وأنا أتابعه بشغف.. قال:

«ادّعى أمير هذه المدينة أنه نبي واستدل بقول الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ وفسر ذلك بأن نبي العرب محمدًا - ﷺ - عربي اللسان وهو نبي البربر!! وسنّ شرائع جديدة ما أنزل الله بها من سلطان، وتمادى في غيه وضلاله.. فأباح الزواج بلا قيد ولا شرط فلو أراد أحدهم الزواج من ألف امرأة أجاز له ذلك، وفرض عليهم

صوم رجب، وحرم صيام رمضان، وبدل مواقيت الصلاة فجعل خمس فروض للصلاة نهارًا وخمس فروض ليلاً.. أما عن صلاتهم فهي بلا أذان ولا إقامة.. وبدّل أسماء سور القرآن.. فسمى بعض الآيات بسورة الديك وسورة الجراد!!

وهناك الكثير من البدع التي أقرها والتي لا أذكرها كلها.. حين سمع بهم ابن تاشفين بعث إليهم مجموعة من الدعاة العلماء الربانيين.. يعظونهم ويدعونهم لدين الله لينقذوهم مما هم فيه من وثنية وزندقة وخروج عن شرع الله فاجتمع البراغواطي مع أكابر قومه واتفقوا على قتل هؤلاء العلماء الدعاة ونفذوا فعلتهم.. فلما سمع ابن تاشفين ذلك استشاط غضبًا وجهز جيشًا لا قِبل لهم به وسار إليهم.. ولم تمضِ سوى ثلاثة أيام حتى وصل إليهم.. حينها فرّ البرغواطيون تاركين مدينتهم، وأمّا من أسلم منهم فقد سكن في هذه الضاحية..»

مع إدريس اكتشفت هذه المدينة الساحرة، وكنا في كل رحلة نكتشف وجها آخر للمدينة..

لقد كان يخطف بصري سقوف البيوت المصبوغة بألوان زاهية، وتستوقفني كثيرًا مصاريع الأبواب الخشبية المنقوشة بنقوش بديعة.. كانت تلك السقوف مليئة بأقفاص تشبه خزائن العطارين.. غير أنها كانت أقفاصًا للحمام.. فما بين العصر والمغرب كانت سماء فاس تمتلئ بأسراب الحمام الملوّن حيث كانت أغلب بيوت فاس تربي الحمام وتعتني به؛ وقد شهدتُ أكثر من مرة مشادة كلامية حادة بين مطيّري الحمام.. كادت هذه المشادات تتطور إلى اشتباك بالأيدي فكثيرًا ما كان الحمام يختلط ببعضه البعض وهذا يكون سببًا للنزاع!!

في أحيان كثيرة كنتُ أتبع إدريس دون أن أسأله؛ فحب

الاستكشاف كان يسيطر عليّ لدرجة أننا سرنا ذات مرة في موكب عرس كان يمر بالسوق الكبير قرب الجامع وقد حمل الحمّالون صندوق خشب مثمّن الأضلاع في داخله العروس والصندوق مغطى بالثياب الحريرية والديباج وحولها أبوها وإخوتها وخؤولتها وعمومتها وأبو الزوج وأقاربه.. يتقدمهم حاملو المشاعل والمزامير وضاربو الطبول..

وبقينا نسير في الموكب حتى وصل إلى بيت أهل العريس.. حيث سلموا العروس لأم زوجها، وقد استرقنا النظر فرأينا أوعية كبيرة مملوءة بالفطائر والعسل والخرفان المشوية قد وصلت لتوها من أصدقاء العريس المقربين.. بينما كانت الألحان العذبة وأصوات المنشدين تصل إلى خارج البيت..

ولكننا ومع كل مغامرتنا فقد كنا نحرص على العودة قبل حلول الظلام لأن والد إدريس كان قد حذره من التأخر بعد غروب الشمس.. وحذره أيضًا من الخروج إلى الحارات الأخرى.. فالكثير من أهالي الأزقة يرشقون الحجارة على أهالي الحارات الأخرى الغرباء إن وجدوهم قد تسللوا إلى أزقتهم وحاراتهم.. وقد يتطور هذا الضرب والرشق بالحجارة لدرجة أن تعجز الشرطة ذاتها عن فض هذه الاشتباكات!!

وكان والد منصور يخاف علينا أن نقع ضحايا لهؤلاء المتنطعين!!

أم إدريس

«حامل العطر إن لم يعطك عطره متعك بنشره»
أبو مدين الغوث

كانت أم إدريس تتعلق بي يومًا بعد يوم.. فإدريس ولدها الوحيد وقد رأت فيَّ ابنًا ثانيًا لها، تمنت أن تنجبه يومًا ليكون سندًا وظهيرًا وأخًا لإدريس..

كانت عندما تراني أرتدي ثيابًا رقيقة في الشتاء تلحق بي وتوبخني ولا تدعني أخرج من عندها إلا وقد ألبستني ثيابًا من ثياب إدريس.. ثيابًا تقيني برد الشتاء ولسعه!!

لأفاجأ بعدها بأيام وقد اشترت لي ثيابًا صوفية سميكة طالبة مني أن أذهب لغرفة إدريس وأستبدل ثيابي القديمة بالثياب الجديدة..

وكانت عندما تراني أتباطأ في تناول الطعام.. تلحق بي من ركن إلى آخر ومن زاوية إلى زاوية لتتأكد من تناولي الطعام.. وكان مما زاد في تعلقها بي وتعلقي بها الحكايات التي نحكيها؛ فعندما كنا نجلس أنا وإدريس حول الفسقية ونحكي.. كانت تقترب منا وتُنصت لنا خاصة عندما أحكي عن درة الأندلس إشبيلية.. أو عندما أتذكر حكايات سيدي الخباز أبو العباس الطليطلي أو أمي الثانية ومربيتي عائشة.

كان همّي الذي يؤرقني أنني بلا أم ولا أب ولا أهل!! وهمها الذي يؤرقها أنها لم تنجب سوى ولد وحيد!!

عندما جئت إلى فاس كنتُ كغصن جافّ ملقى على قارعة الطريق اقتلعوه من شجرة ضاربة في أعماق الأرض.. ولم يكن يُخيّل لي أن يخضرّ الغصن ويتفتح فيه لون الحياة فيصبح له وجه أم صبوح حنون تلقاه بالمحبة والبشر والدفء وتكلّله بالدعوات.. وأخ يتقاسم معه الفراش والطعام والركض في الأزقة والسباحة في الأنهار.. أخ يستند عليه ويعوضه النفور الذي وجده من إخوته..

لم أكن أتخيل أن الله سيبدلني إخوتي الخمسة بأخ يحبني ويثرثر معي صباح مساء.. يفهمني قبل أن أنطق.. يرفعني ويمدّ يده لي يده عندما أقع.. لم أكن أتخيل أن أجد لقمة تختلف عن أي لقمة..

لقمة مغموسة بالحب والحنان وليس مجرد لقمة تُسكت قرصة الجوع!!

لم نبقَ صغيرين جمعهما القرآن والركض في الأزقة ورواية الحكايات واستكشاف فاس.. لقد بتُّ أحمل ملامحه ويحمل ملامحي ويبدو أن ذلك مردّه أن أم أخي إدريس كانت تشتري لنا ملابس متشابهة لها نفس الألوان والقياس وأيضًا تُلبسنا ذات الأحذية!!

وصار أهل فاس ولتلازمنا مع بعضنا ينادوننا بالأخوين وهذا ما أسعد أمّ أخي إدريس..

كنتُ أصغر من إدريس قليلاً.. هو أسمر البشرة وأنا أبيض.. لون عيوني يميل للزُّرقة بينما لون عينيه سوداوان ومع ذلك لا أدري لماذا صار الناس يروننا متشابهيْن!!

كانت أم أخي إدريس تنتظر حكاياتي التي في جعبتي عن أهل

الأندلس.. تلك الحكايات التي حكاها لي سيدي الخباز أبو العباس..

صارت تنتظر حكاياتي خاصة بعدما حكيت لها قصة الحاجب المنصور الذي كان بعد كل معركة ينفض ثوبه ويأخذ ما خرج منه من غبار ويضعه في قارورة.. وقد خاض ما يزيد عن سبع وخمسين غزوة لم يُهزم في إحداها قط وتكدّس غبار المعارك في تلك القارورة، وقد أوصى بأن تُدفن تلك القارورة معه في قبره!!

حينها تعجبت أم أخي إدريس وسألتني:

«ولماذا أراد أن تُدفن معه؟»

قلت:

«لأنه سمع حديث رسول الله - ﷺ - «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم»

كان سيدي الخباز يقول وبعد كل حكاية:

«يا بني نحن نعيش الآن في أكناف عزّ وسؤدد وكرامة بناها أجدادنا الأوائل.. فهم من دخلوا البلاد وعمروها وأقاموا هذه الدولة العظيمة»

أعدل جلستي قليلاً قبل أن أكمل الحكاية وعيون أم أخي إدريس تتابعني بشغف وأذنا إدريس تتحركان صوب كلماتي:

«سأحكي لكم كل شيء حكاه لي سيدي الخباز عن الحاجب المنصور.. سأحكي كل التفاصيل؛ لأنها حكايات تثلج الصدر وتملأ قلوبنا بالفخر والعزة..

لقد سيّر الحاجب المنصور جيشًا عرمرم من أجل أسيرة مسلمة!!»

أوَحقاً ما تقول؟! قالت أم أخي إدريس

«إيه والله.. فقد كان للحاجب المنصور رسل كُثر يترددون على

ملوك النصارى ويأخذون منهم الجزية، وكان بينه وبينهم عهد بألاّ يأسروا أحدًا من المسلمين وإن كان عندهم أسرى سابقون فيخرجونهم، وذات مرة وبينما كان رسول الحاجب المنصور يتجول في المملكة.. إذ وجد ثلاثة نساء مسلمات مكبّلات في إحدى الكنائس؛ فغضب غضبًا شديدًا وعاد للمنصور يخبره الخبر.. فما طلع الصباح على الأسيرات إلا والجيوش على مقربة منهن!!»

لابد أن ملك نافارا قد تعكر دمه لهذا الخبر!! هكذا قالت أم أخي إدريس!!

قلت:

«لقد ارتعد كما يرتعد الفأر واختبأ في جحره وبعث بمبعوث يسأل الحاجب المنصور لماذا جئتم وقد كانت بيننا وبينكم معاهدة ألا نتقاتل.. ولم نتخلف عن دفع الجزية!! لقد كان مصدومًا مما حدث!!»

فردوا عليه:

«إنكم تحتجزون أسيرات مسلمات في كنائسكم..»

فخرج ملك نافارا من مخبئه ليتأكد من أمر النسوة.. فلما وجدهن أخرجهن وأرسلهن مع الهدايا للحاجب المنصور وأقسم له أنه لا يعرف بأمرهن وقد أسرهن جندي من جنوده دون علمه.. ثم وبعدما أطلق سراحهن هدم الكنيسة اعتذارًا للحاجب المنصور!!

وبعد كل حكاية.. تدبّ الحركة في البيت الساكن وتعلو الضحكات، وما أن ينهكنا الكلام حتى نغفو..

وهكذا صرت كلما أتيت إلى الدار تعرف أم إدريس أنني أخبّئ في جعبتي قصة ما.. فتتلقاني بالحبور والسرور وتقول بصوت ودود:

«نأكل ثم تحكي لنا حكاية» من حكاياتك العجيبة..»

«مخالطة أهل البدع تميت القلوب»

أبو مدين الغوث

صرتُ أتتبع الكتب كزهرة دوار الشمس التي تتبع مسار الشمس.. فقد أصبحت الكتب تعني لي الحياة.. الكتب هي التي جعلت حياتي محتملة.. كل كتاب أقرأه هو ساحر بطريقة ما.. ساحر يأتي لي بالماضي ويرسم شكل القادم.. ساحر يجعل الأحلام المستحيلة حقائق والحقائق المُرّة أحلامًا ممكنة!!

لقد أصبحت الكتب هي الهوى الذي يهدي إلى الرُّشد.. آوي إليها كما تأوي الأحلام المستحيلة إلى قلب المؤمن.. وما بين كتاب وكتاب.. أطوي حزنًا وأتخفف من وطأة الفقد.. وتنبت لي أجنحة فتحسدني الطيور المحلقة!!

الكتاب هو الملاذ الذي ألجأ إليه عندما أريد أن أتحدث إلى أحدهم ولا أجده!!

الكتب هي من أطفأت حرائق روحي وأشعلت الآسن في أفكاري وقطّبت أوجاعي وجعلتني أتذوق نعيم أهل الجنة قبل أن تطأها قدماي!!

وأصبح الورق هو البياض الوحيد في حياتي يلفه سواد من كل جانب.. كشال أسود يلف وجه جميلة..

كنت أتوقف كثيرًا عند الكتب التي كان شيخي يتحدث عنها

بشغف وحب.. عشقت كتاب إحياء علوم الدين وكان لشيخي ابن حرزهم معه قصة جعلتني أتلهف لقراءته، ووقعت في غرام الكتاب كما وقع شيخي في غرامه بعد أن جُلد بالسياط ثمانين جلدة ولذلك قصة حكاها لي شيخي فقال:

«اعتكفت على قراءة كتاب إحياء علوم الدين للغزالي في بيت مدة، وكان قد ذاع صيته في كل البلاد الإسلامية.. لكن أهل المغرب والأندلس قابلوا الكتاب بالرفض ونصبوا له المحارق وأعدوا لمن يقتنيه أو يُضبط وهو يقرأه محاكمات!!

وكنت ممن قال بحرقه ومنع تداوله وقراءته.. وعزمت على إحراق الكتاب وكنتُ مطاعًا في بلاد المغرب فأمرت بإحضار كل ما فيها من نسخ الإحياء وطلبت من السلطان أن يُلزم الناس بذلك فكتب إلى النواحي والمناطق وشدد في ذلك وتوعد من أخفى شيئًا بالعقوبة ونمتُ ليلتي وأنا أنوي في الصباح أن أشهد حرق الكتاب فرأيت في المنام قائلاً يقول:

«جردوه واضربوه حد الفرية فضُربت ثمانين سوطًا فلما استيقظت جعلت أقلب ظهري وكنت أجد ألمًا شديدًا»

صحوت من نومي.. واعتكفت على قراءة الكتاب مرة أخرى.. متخلصًا من إرث قديم.. ويبدو أنني كنت لا أتحمل التغيير والتجديد في الأفكار والطروحات.. وأتخوف من التزكية وعلم الكلام كعادة فقهاء المالكية.. وكنت أخاف أن يُحدث الكتاب فجوة وهزة بين الفقهاء والمتصوفة!!

أمسكت الكتاب مرة ثانية.. قرأته على مهل.. فوجدت فيه خيرًا كثيرًا.. فقد قام بتشريح وضع المسلمين المتردي، ووضع يده على أماكن

الخلل في الأخلاق والعمل وأزال كل الترهلات الفكرية والفقهية.. وبمبضعه البديع قطع كل الدمامل القلبية وأعاد للقلب صفاءه ونقاءه!!»

بعدما قال شيخي هذه القصة شعرت بلهفة شديدة للتعرف على كتاب (إحياء علوم الدين) وكانت اللهفة تزداد يومًا بعد يوم وخاصة أنه لم يكن قد آن الأوان لكي نبحر في هذا الكتاب، ولكن ما جعلني أشعر بالتفاؤل واقتراب موعد لقائي بالكتاب هو أنني أتقنت اللغة العربية والشعر والحساب وختمت قبل ذلك كله القرآن الكريم على عادة الأندلسيين الذين يفضلون دراسة القرآن أولاً.. وببركة حفظي للقرآن فقد سهل الله لي كافة العلوم الأخرى.. ومع أن شيخي كان يرى أن يعلمني في البدء العربية والشعر حتى لا أحفظ القرآن وأنا له غير فاهم.. فثقُل همّي وفقدت شغفي بالتعلم ولكنني طلبت من شيخي أن يحفظني القرآن أولاً وأثبت له عكس ما كان يتوقع ويراهن.. فقد كان حفظي للقرآن هو الشرارة التي فتحت قريحتي وحبي لبقية العلوم الأخرى..

في ذات مساء خريفي فاسي.. تسللت إلى مكتبة شيخي وكان قد تعود أن يأخذني في بعض الأيام وبعد انتهاء الدروس إلى بيته.. يقدم لي الطعام والشراب.. لقد كان بارًا بي كأب حنون يقدر غربتي ويُتمي ويبالغ في إكرامي ومتابعة شؤوني، وكان يرى أُنسي ومحبتي وشغفي بالعلم.. فأعانني على ذلك أيّما إعانة..

دخلت مكتبته ذات يوم وأمسكت بكتاب (إحياء علوم الدين) ونويت قراءته لأستطلع ما فيه وإذا بي أعلق بالصفحة التي فتحتها وكانت تتحدث عن الدعاء.. ووجدت صعوبة في فهم الكثير من الأفكار والكلمات ورحت أقرأ وأقرأ علني أصل إلى ما يشفي قلبي..

وأنا في غمرة القراءة وإذ بابن حرزهم يدخل علي ويتابعني بعينه من غير أن يسألني أو يلومني على دخول المكتبة..

سقط قلبي بين يديّ من الخوف.. وسقط الكتاب من يدي.. لكنني رأيت على وجه شيخي ابتسامة!! فهدأت نفسي وشجعني ذلك أن أسأله عن الكثير من المعاني..؟

اقترب ابن حرزهم مني فرأيت نورًا يشع من وجهه.. قال وهو يمسك بالكتاب ويتأمل فيه بينما يضع يده على أكتافي:

اقرأ يا يونس.. اقرأ يا بني..

حاولت أن أقرأ فلم أستطع.. ارتعش قلبي.. وزاغت عيني..

نظرت لشيخي..

فأمسك الكتاب وقرأ فصل الدعاء.. ثم أخذ يشرح:

«في المسافة بين الدعاء والإجابة.. جمر الصبر يُشعل..

ينظر الله إلى قلبك في ذلك الحين.. فاحذر أن يكون الشك عسعس..

أحسِن الظن تُختصر المسافة..

واعلم أن للإجابة حفيفًا يلفح روحك قبل أن ترفع رأسك من السجود..

اتلُ البشارة.. حينها سترى الأماني كفلق الصبح تنفس..

لا تنخ ركابك إلا في جواره.. فلا أحد يعرف وزن دمعك..

لا تخن لحظة الود بينك وبين ربك؛ فتبُح بوجعك في الساحات.. فجرحك لن يحفل به إلا من يعلم السر وأخفى»

وأعقبتُ أتلو قول الله تعالى ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾

فتهلل وجه شيخي وأدرك أن كلامه أثمر في قلبي وهززت رأسي

وعيوني تطلب المزيد.. فهم شيخي تعطُّشي لكلامه.. فأكمل:

«رأى زكريا عليه السلام عند مريم فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف.. فطمع في عطاء الله ودعا ربه..

للدعاء مواسم.. وموسمه المطري حين يحلق القلب ويطرزه اليقين..

قد ترى معجزة ما.. قد تطرق قلبك آية تقلب حياتك وترتوي بعد عطش..

قد يرق قلبك بعد أن يبس.. ويطرى بعد أن جف..

قد تلمس عظمة ربك..

هي لحظة..

في مكان ما..

في وقت ليس ككل الأوقات.. ليس له ميقات.. حيث ورد الروح يتفتح ويعبق..

حيث تحتسي الإجابة وتتذوقها فتذوب دهشة من عطاء الله..

هي لحظة فاغتنمها..

قل يا الله..

فهذا موسمك أنت..

لا تنمِّق الدعاء..

التقط ساعة الإجابة الخاصة بك.. إياك أن تفلت منك!»

وكانت هذه هي الوصية الخامسة

***

عدنا إلى الدرس.. كنتُ أرى الآباء يدخلون إلى المحضرة يراقبون أولادهم لبرهة ثم يخرجون.. وأحيانًا يجلسون قليلاً بينما الولد يتابع

أباه بنظراته يستمد منه القوة والفخر.. وفي أحيان كثيرة كان الآباء يجلسون في الخارج ينتظرون خروج أولادهم ليصحبوهم..

كثيرًا ما كنت أتخيل أبي يجلس بينهم.. يسمعني وأنا أردد الشعر وأحل مسائل الحساب وأناقش شيخي في كتاب الرعاية لحقوق الله للمحاسبي وأستظهر الأحاديث من كتاب السنن للترمذي.. كنت أكاد أقفز من مكاني فرحًا وأنا أرى أبي ينظر لي بفخر.. أسمعه يصفق لي عندما أجيب شيخي على أحد مسائل كتاب الرسالة القشيرية ومأثورات الجنيد..

كنت أسمع صوته خلفي.. لقد كان هو.. فلا أحد يشبه أبي.. أعرف رنة صوته لقد خبرتها جيدًا وسمعتها وأنا في بطن أمي.. كانت هذه المرّة التي أرى فيها أبي يقف مع الآباء.. يتابعني منشرحًا متهللاً وكأنه جُوزي على أعماله الحسنة فأخذت أردد ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ .

«من خرج إلى الخلق قبل وجود حقيقة
دعته لذلك فهو مفتون»
أبو مدين الغوث

عام جديد يضاف إلى أعوامي السابقة في فاس.. أعوامي التي كانت مليئة بفيض من العلوم والمعاني والحقائق والرؤى.. ففي كل يوم أحب هذه المدينة أكثر وأكثر.. فهي ليست مجرد مدينة.. إنها أم تحمل عن كاهلك المتاعب والابتلاءات.. تمسح على جراحك فتبقى طفلاً غضًا مهما كبرت.. تحوطك بلهفتها وحبها.. وتنفخ في رمادك لتعود لك الحياة كلما انطفأ قنديل من قناديلك.. إنها فاس وكفى..

كل يوم جديد في فاس يعني لي الكثير.. كل يوم جديد أرشف علمًا.. أسد ثقوب الجهل.. أزيح الغبار الذي علق بعقلي وروحي..

في مثل هذا اليوم وطئت قدماي مدينة فاس.. عشر سنوات مرت وهذا اليوم هو آخر يوم في شهر مارس.. صار الهواء أكثر حرارة.. وبدأت المروج الخضراء تصفرّ، وغادرت الأزهار معاقلها واعدة الأرض بالعودة، وبدا أن التغيير في أوقات الدرس قادم.. حيث قال شيخي:

- سيتغير توقيت الدرس.. حيث سنبدأ الدرس من منتصف الليل إلى الساعة الواحدة صباحًا وبما أن عهد الشتاء قد ولّى وكانت دروسنا تبدأ بعد صلاة الفجر مباشرة، ولأننا تحولنا إلى التوقيت الصيفي، ولأن النهار غدا فارغًا من الدروس لاشتداد الحرارة فقد استطاع شيخي أن

يدبر لي عملاً ككاتب في مشفى بجوار باب الخوخة بعدوة الأندلس وكانت تسمى حارة المرضى..

وكانت حارة المرضى خارج مدينة فاس.. في مهبّ الريح الغربية حيث يحمل الهواء أمراض المرضى وأوبئتهم إلى خارج المدينة حتى لا يصاب سكان فاس المتواجدون داخل المدينة بأذى!!

كان في حارة المرضى مجذومون ومجانين وحمقى ومرضى من مختلف الأمراض.. لكن ما لفتني حقًا هم هؤلاء الحمقى الذين يوضعون في حجرات لها سواتر خشبية محكمة.. كانت أصواتهم تصم الأذان.. تتعالى حينًا بالبكاء والعويل وحينًا آخر بالضحك وقذف بعضهم بعضًا بأواني الطعام أو تمزيق الثياب.. وكثيرًا ما رأيتهم يرمون الطعام ويلوّثون به ملابسهم كأطفال صغار، وأحيانًا كثيرة يتبولون على أنفسهم.. وغالبًا ما تصدر روائح كريهة ومنفّرة من حجراتهم.. ذلك أنهم يتغوّطون في ثيابهم.. مع أن لهم ميضآت خاصة بهم.. فيضطر الخدم إلى تنظيفهم وتنظيف حجراتهم كل حين.. ويضطرون إلى تقييدهم بالسلاسل والأغلال حتى لا يؤذوا أنفسهم أو يؤذوا من حولهم..

وأشد ما كان يثير استغرابي ودهشتي أن لهؤلاء الحمقى والمجانين عدة شخصيات في شخص واحد.. ففي أحيان كثيرة يبدون هادئين طبيعيين يتصرفون بعقلانية واتزان عجيب ويقولون كلامًا يعجز عنه أصحاب العقول والعلوم.. وفي أحيان كثيرة يثورون ويهيمون.. فيكسرون ويصرخون، وأحيانًا يعتدون على من يخدمونهم فينالهم أذى كثير.. ذات يوم وعندما كنت أمر بالقرب من نافذة أحدهم اقتربت منه.. سألته عن اسمه فقال: علي

أخذ يشكو لي من حاله وغربته وقسوة الخدم المشرفين عليه وأخذ يشير إلى موضع الأغلال والقيود التي تحز يديه وأقدامه وتؤلمه أشد الإيلام.

نفرت الدموع من عيني وهممت أن أفتح له باب الحجرة لأطلق سراحه وليحصل ما يحصل.. اقتربت منه فإذا هو رجل أربعيني.. جميل الوجه والطلّة.. لم يخالط الشيب رأسه ولا لحيته الطويلة الكثة.. وفجأة جذبني جذبة قوية وأمسك بتلابيب ثيابي حتى كدت أختنق لولا أن أنقذني أحد الخدم!!

هربت مسرعًا ولا أعرف كيف قادتني قدماي إلى الخارج.. وقررت بعدها ألا أقترب من المرضى الحمقى والمجانين ولا حتى من نوافذهم وحجراتهم.. ولا أسير في الممرات المؤدية إليهم وانغمست في عملي ككاتب..

مضى فصل الصيف وحل الخريف بلسعاته الباردة المنعشة وعادت الدروس بعد صلاة الفجر، وصرت كلما وجدت وقتًا أخرج بصحبة آية وحديث حفظتهما من شيخي.. فأخرج خارج فاس.. أجتاز الشعاب المجاورة الملأى بالفاكهة وأشم رائحة الزبل المكدس الذي يترك ليجف شهرين أو ثلاثة حتى يستخدم كالحطب لتسخين ماء الحمامات.. وتداعب أنفي رائحة الخرفان المشوية المنبعثة من الأفران حيث يوضع الخاروف كاملاً في فرنين.. أحدهما فوق الآخر وتوقد النار في الفرن الأسفل طوال الليل فينضج الخاروف على مهل ويكتسب لونًا ورديًا وطعمًا لذيذًا ولا يصيبه الاحتراق ولا الدخان.. وفي الصباح يكون جاهزًا للبيع..

***

أسير وأمضي إلى جهة الغرب.. أخرج خارج مدينة فاس وأجلس في مكان مرتفع ومشرف ويطل على المدينة وأفتح باب عقلي وقلبي وأردد الآية التي حفظتها عن شيخي.. ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ﴾

استرجع ما قاله شيخي:

«إذا أحب الله عبده قبل منه اليسير من العمل» وعندما سألته لماذا؟

قال: «كفى بربك أنه لا يزن أعمالك بالكثرة ولا يزنها بخطوة قدمك وإنما بخطوة قلبك.. والسير إلى الله لا يكون بالأقدام وإنما بالقلوب!!»

أخذت أتلو الآية مرة تلو المرة.. أتأملها ما شاء الله لي أن أتأمل حتى يكشف الله لي سراً من الأسرار التي تحملها الآية ولم يصل إليها شيخي ولا أحد من الطلاب والمريدين..

أُكثر من التسبيح والذكر حتى ينجلي قلبي ويتطهر؛ فإذا تطهر رفع الله عني حجب المعنى وكشف لي المكنون والمستور.. فكتبت

«والحب يذبل كما يذبل الزهر!!»

الحب ذخيرتك.. فاختر لمن تُعطي مشاعرك وزهر قلبك..

لا تصرف حبك وتبذره للعالمين.. ادخره للواحد الأحد.. فإن فعلت حبَّب فيك خلقه وأتاك بقلوب العباد صاغرة..

وإن استنفدت ذخيرتك من الحب لهذا وذاك ونترثها في مضمار الدنيا.. نفد ما عندك من مخزون ولم يبقَ لله منه شيء.. ثم كان

جزاؤك أن لا تلقى من الناس إلا الهمّ والكدر.. كيف لا وقد قدمتهم على مولاك!!

إياك أن يزاحم حب الدنيا وأهلها حب الله عندك.. فذلك عنوان الهزيمة!

احفظ ذخيرتك من الحب لمن يستحق.. حينها سيجري الله في كفك زمزم!!

وحتى لا يُطفأ قنديل قلبك.. أحبب الله حب الخواص..

أحببه.. إن أعطاك أو منعك..

إن قدَّمك أو أخَّرك..

إن ضيّق عليك أو وسّع..

وكن كما قال الجنيد: «المحبة إفراط الميل بلا نيل»

ولا تبتئس بالنوازل والبلايا..

فالنازلة قرب وأُنس بالمحبوب.. وحلاوة في السجود وتلذذ بترقب المأمول..

وقل يا رب..

حاشا أن أكون كالعوامّ في محبتهم التي تعلو وتهبط.. وتقل وتكثر.. إن ساق لهم العطايا والنعم أحبوه وعظموه.. وإن منعهم وأخّرهم جزعوا واتهموا الله في حكمه وقدره ولم يعرفوا أن منعه عطاء وجدبه اخضرار وقفله هو المفتاح!! وأنّى لهم أن يعوا ذلك وهم لا يعرفون أسماء الله وصفاته وعظيم قدرته وقدره وفرادة حكمه ولطفه!!

قل لمن يريد أن يظفر بمعنى ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾

لابد أن تخلع عن كتفك شال الدنيا.. فعنوان الوصول إلى الله هو تقديم محبته على كل محبوب..

يُحِبُّهُمْ..

وللمرة الأولى أشعر أن مبدأ الحب من الله.. وكنت أظن أننا نحب الله فيحبنا.. ولكن الله بدأ بمحبته لنا وتودُّد إلينا..

الله جل جلاله.. يعنيك ويعنيني بهذا الحب.. إنه يناديناً.. فإن تذوقت طعم الوصال والقرب لم ترض له بديلاً!!

حسبك أنه يحبك ويضمّك ويروي ظمأك للحب..

إن أحبك.. فقد استغنيت عن كل محبوب.. إن أحبك نادى يا جبريل.. إني أحب فلانًا فيحبه أهل السماء، وتتسابق الملائكة لمحبتك ويضع حبك في قلوب الخلائق..»

عدت إلى شيخي وعرضت عليه فتوح ربي فقال لي:

إنك تفعل كما كان يفعل الصحابة.. إنك لا تتجاوز الآية حتى تتأملها وتفهمها وتعمل بها..

وبعد مرور سنوات.. أجلسني شيخي على كرسيه وقال لي:

«لقد انتهى عهدك كمريد وبدأ عهدك كشيخ جليل»

«الأسارى : أسير نفس وأسير شهوة وأسير هوى»
أبو مدين الغوث

جُنَّ بفعل التعذيب في زنازين القشتاليين!! وعندما أُسر لم يكن عمره قد تجاوز الثلاثين، وعندما استطاع ابن تاشفين فك أسره وافتداه كان عمره يقارب الأربعين!!

عشر سنوات في الأسر، لكنه كان صبورًا لدرجة أنه لم يتفوّه بكلمة واحدة عن رفاقه وعن ابن تاشفين!

كان من أمهر وأذكى رجال ابن تاشفين وأكثرهم قدرة على الرصد والمتابعة والتقاط المعلومات من معسكر الأعداء.. كان حذرًا وجريئًا وله قدرة عالية على التخفي والتمويه بحيث لا يترك وراءه أي أثر..!!

قبل أيّ غزوة أو عملية عسكرية كان ابن تاشفين يحرص على إرسال (علي) للتقصي وجمع المعلومات.. يسير في المسالك والدروب والممرات والجبال الوعرة.. لا يحمل درعًا ولا ترسًا ولا سلاحًا؛ فلديه من المهارات ما تغنيه عن هذه الأسلحة.. يركض بخفة وكأنه قطرة ماء تتدحرج من علٍ.. يصعد ويهبط.. يلتفّ ويتوغّل في الطرقات الصلبة.. ويبتعد عن الأرض التي تتثير غبارًا أو نقعًا حتى لا يلفت نظر الأعداء إليه..

يحرص على انتقاء خيله.. فلا يرضى الخيل الجامح ولا الحرون، ولا يمتطي إلا السوابق العالية الظهور.. الصلبة الحوافر التي تقدح

الأرض قدحًا.. يعرف كيف يسير في الأرض المكشوفة العارية دون أن ينكشف أمره!

يدرك أن مهمته معرفة خطط العدو ونواياه.. يجمع المعلومة وينقلها بأقصى سرعة؛ لأن لا قيمة للخبر إن كان باردًا..

في كل مرة يجلب معلومة ما.. كان يخلِّص ابن تاشفين من مأزق ويجنبه هزيمة؛ فعند وصول المعلومة لمعسكر المسلمين ترتفع همتهم ويصبحون قادرين على إدارة دفة المعركة بكل مهارة..

في أحيان كثيرة كان يحرص أن يكون معه أكثر من شخص.. يختارهم بنفسه.. يحرص أن يدربهم تدريبًا مكثفًا.. يتأكد من شجاعتهم وقوة صبرهم وعلوّ صوتهم وجسارتهم وحضور ذهنهم.. كان يوصيهم دومًا وقبل كل مهمة بأن لا يتخذوا أي إجراء مهما عظُم الأمر حتى لو وقع بنفسه في الأسر.. فمهمتهم الرئيسية هي المتابعة والرصد وليس الاشتباك مع العدو !

لم يتوقع أحد أن يقع (علي) في أيدي القشتاليين.. فهو من يدرب الجواسيس والعيون على اختراق أرض العدو.. وكثيرًا ما تقمص أدوارًا غاية في الغرابة.. وأخرى مضحكة.. فقد تقمّص مرة دور أحمق يلبس ملابس رثة بالية ويحمل على ظهره حطبًا ويجلس في وسط السوق يسترق السمع لكل شاردة وواردة.. وكان يتقن لغتهم حتى لتظنّ أنه منهم.. كيف لا وهو يملك لون بشرتهم وزرقة عيونهم فجدُّه كان مسيحيًا واختار الإسلام عندما دخل المسلمون الأوائل الأندلس..

كان بارعًا في تغيير الأدوار التي يتقمصها.. وكل مرة يتقمّص شخصية مختلفة ولا ينكشف.. وفي معركة الزلاقة كان له يد طولى!!

فعندما أرسل ألفونسو رسالة لابن تاشفين والمعتمد يخبرهم فيها عن موعد الهجوم قائلاً:

«غدًا الجمعة ولا نحب مقاتلتكم فيه لأنه عيدكم وبعده السبت يوم عيد اليهود وهم كثيرون في محلتنا وبعده الأحد عيدنا.. فلنحترم هذه الأعياد ويكون اللقاء يوم الاثنين»

عندها أرسل ابن تاشفين (عليّاً) واثنين من رفاقه وجعل رفيقيه يشرفان على تلة ويراقبان الوضع فسمعا صوت جلبة وضوضاء.. صليل سيوف وحركة غير عادية.. وتسلل أحد رجاله حيث معسكر ألفونسو ونجح في الوصول إلى خيمة ألفونسو وسمعه يقول:

«ابن عبّاد مسعّر هذه الحروب، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا ذوي بصائر في الجهاد إلا أنهم غير عارفين بهذه البلاد وإنما قادهم ابن عبّاد فاقصدوهم واهجموا عليه.. فإن انكشف لكم هان عليكم هؤلاء الصحراويين من بعده وعرف أن الهجوم سيبدأ يوم الجمعة وما رسالة ألفونسو إلا خدعة!»

لكنه وقع في الأسر لاحقًا في إحدى المهمات العسكرية التي أرسله فيها ابن تاشفين.. فقد قتل جنديّاً قشتاليّاً ونجح في إخفائه وارتداء ثيابه ووصل به الأمر أن كان قريبًا جدًا من القائد القشتالي ونجح في الحصول على معلومات خطيرة، وعندما عرف ما في جعبتهم أسرع يكتب زبدة الخبر للمسلمين على ورق خفيف وربط الورقة تحت جناح حمامة زاجلة حتى لا يصيبها المطر.. وعندما كان يهمّ بكتابة نسخة ثانية من الرسالة احترازًا من أن تقع الأولى في أيدي الأعداء أو يتم التهام الحمامة من قبل الطيور الجارحة..

أمسكوا به قبل أن يطلق الحمامة الثانية وما زالت الريشة في يده!

لم يستطع رفيقاه أن يساعداه.. فهذه تعليماته دومًا.. وصلا ابن تاشفين وعيونهما لا تحيدان عن معسكر الأعداء.. لقد تركا رفيقهما وقائدهما ولم يستيطعا أن يفعلا له شيئًا.. كانت عيونهما تشتعل كالجمر ولا دموع تطفئهما ولا تعبيرات على وجهيهما قادرة على تفسير ما ألمَّ بهما من حزن وجزع!

ومنذ تلك اللحظة لم يفتأ ابن تاشفين يحاول استرجاع (علي) من أيدي القشتاليين.. ومع كل انتصار كان يحققه ابن تاشفين.. كان يزداد اقترابًا من تحقيق أمله باسترجاع أسيره.. وفي النهاية نجح ابن تاشفين في فكِّ أسره.. عندما عرض على القشتاليين تسليم مئتي أسير قشتالي مقابل إطلاق سراح علي.. فوافقوا على ذلك..

وخرج (علي) ولكنه لا يحمل من ذاته الأولى.. أي شيء!

ذاع نبأ خروج (علي) من زنازين القشتاليين، وخرج الناس في الشوارع والأزقة في موكب عظيم.. يقرعون الطبول وينشدون الأناشيد ويحملونه مرفوعًا على الأكتاف.. يدورون به في الشوارع والأزقة..

خرج (علي).. لكن صور التعذيب لم تخرج من رأسه.. لم تبرح صورته خياله وهو مطلي بالحليب والعسل من رأسه لأخمص قدميه مقيد اليدين في ساحة السجن.. وقد غطى الذباب جسده وأكله أكلاً!

خرج (علي).. لكن صوته كان عالقًا.. لا يستطيع الإفلات من حنجرته من هول ما رأى..

خرج ولم يتخلص من رائحة برازه وبوله.. فقد كانوا يقدمون له الطعام والشراب وهو محبوس في إناء كبير يتبول ويتبرز على نفسه حتى تقتله رائحته والديدان والحشرات التي تتجمع على جسده!

كان الدمع محبوسًا في مآقيه وآثار السياخ المحمّاة تلهب أقدامه

وظهره وبطنه.. كانت تتقيَّح جروحه.. ثم يتركونه فترة حتى يشفى ثم يعاودون الكرة لكي يأخذوا معلومات عن يوسف بن تاشفين..

لم يتركه ابن تاشفين.. أخذه معه إلى فاس.. واعتنى به.. جلب له أمهر الأطباء وجرّب معه كل أنواع الدواء.. لكن لم يجدِ ذلك نفعًا فقد كانت جروح روحه غائرة كجروح جسده!

فكان مصيره تلك الدار المخصصة للحمقى..

«إذا سلا القلب عن الشهوات فهو معافى»
أبو مدين الغوث

كانت فاس في هذا اليوم بأبهى صورها.. فقد خرجت المدينة عن بكرة أبيها لتودع حجاج بيت الله الحرام.. كنت أسمع بنشوة ولهفة المدائح النبوية والأشواق لبيت الله الحرام ولمدينة رسول الله.. بالأمازيغية حينًا وبالعربية حينًا آخر.. كانت الأزقة والبيوت تهتز تحت وطأة أقدام الجموع الهادرة والآتية من كل أنحاء فاس.. وكانت دموع المودعين تختلط بأشواق الراحلين..

لم أكن أتخيل أن مشهد الحجيج الذي علق في روحي كما تعلق السفينة بشراعها سيتحول إلى حقيقة بهذه السرعة.. فقد كنت أتذوق ماء زمزم في أحلامي وأُلبّي وأطوف وأسعى.. كنت أعدو كغزال نحو مكة في كل ليلة.. فأصحو وأنا ألهث وكأن صيادًا يتبعني ويوشك أن يقنصني!!

كنت أخبّئ تلك الخبزة التي أعطيتُها يومًا ما لحاج عائد فقضم منها قضمة ثم اختطفتها منه تبركًا بها.. وقد كان من عادة الناس في فاس أن يخرجوا بالطعام والشراب والحلوى والنساء والرجال والولدان لاستقبال الجموع العائدة من بيت الله الحرام..

وكثيرًا ما كنت أفكر وأدوّر فكرة السفر في رأسي.. فقد كانت تحيرني الطريق التي أسلكها للحج.. فهل أختار طريق البر والصحراء

اللاهبة ورياحها الثائرة التي تخفي رسم الوجوه؟

أم أختار البحر الهائج الذي يبتلع الأجساد المنهكة؟ وهل أسير في طريق الشام أم أختار طريق مصر؟

في سنوات سابقة كان قد أفتى الفقهاء والعلماء بسقوط فريضة الحج عن الحجاج المغاربة والأندلسيين؛ لما يعانونه من أهوال وكروب ولصوص متربصين في الطرقات، ولكنني وعلى الرغم من كل ما سمعته من أهوال الصليبيين المتربصين الدوائر بالمسلمين فقد نويت الحج مع أنني لا أنسى أيًا من تلك القصص المروية من الحجاج العائدين ومنها تلك القصة التي رواها حاج فاسي عائد من الحج..

فعندما نزل ذلك الحاج في مدينة حلب.. هُرع إليه رجل حلبي ومعه بنت صغيرة قاربت البلوغ وعرضها على ذلك الحاج الفاسي وقال له:

«أرغب في تزويجها لك.. فإن قبلت فسأكون مطمئنًا مسرورًا وإن لم تقبل فخذها معك وزوجها لمن تراه مناسبًا وذا خلق ودين، وكان يبكي بكاءً مُرًّا يقطع الأوصال وأكمل قائلاً:

لا أريد لابنتي أن تقع أسيرة في أيدي الفرنجة والصليبيين، ولا أتحمل أن تتعرض لما تتعرض له بناتنا المسلمات من سبي وقهر وقيود وأغلال..»

في هذا اليوم كان شيخي في وداعي.. وكنت أسأله عن كل ما يخص شعيرة الحج وأركانه وواجباته فقال مستغربًا:

«ما بالك تسألني عن عدد الحصيات وهيئة الطواف والسعي؟

يا بني.. إن الله لا يريد منك الحواشي.. فلا تجعل همك رداء الإحرام ورجم إبليس..

الله يريد منك المتن.. فالقلب هو الذي يبلغ ويرقى ويطوف ويسعى والحجاج كثر، لكن البالغين بقلوبهم قلة، واعلم أن للنية مخاضًا عسيرًا يطول ويقصر ويرفع ويردي.. وما يسلب العبادة لبَّها سوى النية، وما يزينها ويعليها سوى النية، وما يتفاضل العابدون والركع السجود والذين يقفون صفًا واحدًا إلا بمقدار ما في قلوبهم من هطل أو جدب!!

يا بني.. الحج مجمع العبادات فلا تعلق بشكل العبادة.. فلكل منسك شكل وروح فلا يشغلنك العنوان عن المعنى..»

وكانت هذه هي الوصية السادسة

***

وركبت البحر من فاس وانتهينا إلى الإسكندرية..

كان ركوب البحر عصيًا شديدًا فما يلبث أن يهدأ حتى يهيج.. حتى لكأنه يريد أن يخرج ما في بطنه ويلقيه ويبتلع ما على سطحه ويمضغه مضغًا..

كانت الريح ثائرة.. ترفع الموج وتحمل المطر وتلقيه كأنه سكاكين تمزق الأشرعة حتى خلنا أنها النهاية.. يمضي الليل بأكمله ونحن على هذه الحال حتى لنظن أنه لن يطلع علينا الصباح، وما أن يطلع الصباح حتى تشتد الريح أكثر وأكثر فتضيع الاتجاهات وينغلق علينا البحر الواسع ويضيق حتى لكأنه حلقة حول أعناقنا..

واشتد دعاء من على السفينة وتضرعوا ودعوا دعاء الضارع الذليل المستجير اللائذ بعظمة الله وقدرته، وما هي إلا ساعات قليلة حتى مرت سفينة محاذية لنا.. أصلحوا لنا شراعنا وتبعناهم لنستدل على الطريق بعدما أضعناه من شدة الريح والموج.. ووصلنا صقلية ولم يكن أحد على المركب يتقن لغة الروم إلا راكب واحد.. فنزل إلى المدينة

لكي يتزود لنا بالماء والشراب والحاجيات، واشترى ما أوصى به الركاب من زاد، لكنه عاد والدموع تترقرق في عينيه من سوء ما رأى!!

رأى ما يزيد عن ثمانين أسيرًا من المسلمين يرفلون بالأغلال والقيود وأشد ما آذاه هو رؤية الحرائر المسلمات مقيدات بالأغلال في أيديهن وأرجلهن يُبَعن في الأسواق!!

وظلت هذه الصورة عالقة في أذهاننا نحن الحجاج.. وظلّلتنا بالحزن والكآبة طول الطريق..

وأبحرت السفينة وقد لفها الهمّ والحزن على الأسرى وأحوالهم.. أصلحنا الأشرعة الصغيرة وربطناها بالخشبة ولم نشعر بالفرح والسرور حتى ظهرت منارة الإسكندرية التي كانت تتلألأ.. كانت منارة ما رأيت في طولها وعرضها وحسنها!!

ونزلنا في الإسكندرية وكان يوم جمعة.. حيث استقبلنا أهلها بالدفوف والطبول.. وأمر السلطان بوضع الحمّامات تحت تصرفنا نستحم فيها متى نشاء وأوصى بالمرضى خيرًا.. فمن مرض منا.. فله أن يتعالج في المارستان الذي بني خصصيًا للحجّاج، وما نقص علينا من زاد أو دواء كان يتكفّل به أهل المدينة..

وأكملنا طريقنا حتى وصلنا إلى عيذاب وهي صحراء جرداء لا ماء فيها ولا نبات، وأهلها لا يعرفون من الإسلام إلا قول لا إله إلا الله محمد رسول الله.. جلودهم منكمشة على العظم.. حفاة.. عراة.. لا يسترون سوى عوراتهم ولا طعام ولا زاد عندهم سوى ما يجلبه الحجاج معهم..

وعندما وصلنا إلى جدة وأردنا الخروج منها متوجهين إلى مكة.. حدث ما لم يكن في الحسبان.. فلم يُسمح لنا بالخروج إلا بعد دفع

المكوس.. وأخذ الحجاج يبتهلون إلى الله ويدعون أن يفك عنهم هذه الغمة.. فأكثرهم لا يحمل من المال إلا القليل الذي يكفيه بالكاد ولم يكن في حسابه أن يدفع المكوس..

هذه المكوس ترهق الحجيج وتجعلهم في ضيق وكرب شديد.. وتوسل الحجيج لكي يُعفَوا من المكوس، ولكنهم احتجزونا ولم يطلقوا سراحنا، وكان قد بلغ الناس المشقة والعنت الشيء الكثير، وقد بلغ بالحجيج الغاضبة أن دعوا على أمير مكة الظالم الذي كان يظن أن مكة بيته لا بيت الله وأنه يحق له أن يُدخل ويُخرج منها ما يشاء، وجاء الفرج بعد أيام عندما سمع أحد التجار الشوام بقصتنا نحن الحجيج المغاربة فقام بدفع المكوس عنا.. وكان يمكن أن يفوتنا الحج ونحن محتجزون كما حدث مع الكثير من الحجاج الذين لا يملكون المال!!

«من لم يأخذ الأدب من المتأدبين أفسد من يتبعه»
أبو مدين الغوث

لم أرَ مكة قبل ذلك.. ولكنها كانت تكبر في قلبي حلمًا تلو الآخر.. وبعد كل عودة للحجيج أو وداع لهم في فاس..

في تلك اللحظة التي رأيت فيها الكعبة تكثف فيها العمر وصار بوزن أحزاني!!

وانثالت كل الصور والأوجاع.. علقتها على أستار الكعبة فغدا الهمّ غيمة تمطر في قلبي سكينة وطمأنينة..

برؤية الكعبة هان عليّ كل وجع.. وأوقد الله لي معنى «قد تُؤجل كل الغنائم ليعطيك الله إياها دفعة واحدة»

عند أستار الكعبة.. انطوت كل الأوجاع.. وأُوقدت كل الأحلام، وصار لي أم ووالد!! وطاب البوح مع الله.. هذه اللحظة هي لقاء النفس مع الله.. ومع ذلك أصيب لساني بالخرس وتحدثت دموعي..

كانت الكعبة بهيّة.. مضيئة مكسوة بستور الحرير الأخضر، وأعلاها رسم بالحرير الأحمر والذي عرفته فيما بعد أن كسوة الكعبة تتغير كل سنة فلم يكن لها لون ثابت.. فأحيانًا تكسى بالديباج الأحمر وأحيانًا بالحرير الأبيض والأخضر..

وكنت أتنقل في ساحات الحرم المفروش بالحجارة السمراء والبيضاء وقد رُصت بعضها إلى جانب بعض وهناك بعض الساحات فرشت بالرمل الأبيض..

كنت أتنقل من حلقة علم إلى أخرى.. أبحث عن شيخ يصل علمه شغاف قلبي ويحركه ويبقيه نابضًا حيًا، وكان من عادة مشايخ مكة وفقهائها أنهم إذا سمعوا أو رأوا شيخًا جليلاً طلبوا منه الجلوس للعلم والفتيا.. كنت أمر على حلقات العلم.. أجلس برهة.. أستطلع الحديث.. فإن شدني أكملت جلوسي وإن كان غير ذلك انسحبت على مهل وأكملت طريقي للبحث عن شيخ آخر.. إلى أن وصلت إلى حلقة يتربعها شيخ صغير السن.. مليح الوجه.. فصيح اللسان.. أبيض الثياب وما أذهلني وشد انتباهي أنه فسر آية الكرسي بلسانين.. باللسان العربي وباللسان الأعجمي.. فإن نطق بالعربية أبهر وجذب.. وإن تحول للأعجمية رأيت دموع الحجيج وسمعت شهقاتهم..

أخرجت قلمي وكراسي من كمي وبدأتُ أكتب وراءه وعندما انتهى تفرغ للإجابة عن أسئلة السائلين، فلم يتوقف عند أي سؤال، ولم يرده سؤال إلا أجاب، فقد كان حاضر الذهن.. متوقد الذاكرة.. سريع البديهة.. عيونه كالصقر ولسانه ذرب..

وانتهى درس هذا الشيخ.. وانفضّ الجمع وخرجتُ من الحرم وذُهلتُ عندما رأيت الناس يحدقون بموكب شامي قادم.. كان الموكب مهيبًا.. موكب من الإبل منصوبة عليه قباب مزخرفة رائعة الشكل.. نُصبت على محامل من الأعواد.. هذه القباب داخلها مجوَّف، وهي كالمهد لركابها من النساء والأطفال.. مملوءة بالفرش الحريرية الناعمة الوثيرة.. يقعد الراكب داخلها لا يصيبه حر شمس ولا لسع برد.. وعندما همَّ الركب بالنزول.. أسرع الخدم يحملون الكراسي لينزل الركب.. وعندما سألت عن الموكب قالوا لي: إنهما أكبر تجار دمشق المقتدرين الذين سخّروا أموالهم وحياتهم لافتداء أسرى المسلمين..

وكانت تجارتهم في الساحل الإفرنجي.. وقد منَّ الله عليهما بافتكاك الكثير من أسرى وأسيرات المسلمين عند الصليبيين..

ولطالما سمعتُ أن الأسر أشد وطأة على النفس من الموت.. فقد عاينت ذلك في إشبيلية وسمعت أخبارًا تدمي القلب عن الأسرى المسلمين الذين يقعون في أيدي الصليبيين، ولكنني هنا بدأت أسمع الكثير من الأخبار وأن الأسر لا يقتصر على مسلمي الأندلس.. بل إن حملات الصليبيين امتدت للمشرق وخاصة بعد السقوط المدوي الأول لبيت المقدس في (أربعمئة واثنين وتسعين)..

في هذا السقوط لم يكن هناك ثمة أسرى!!

لقد ذُبح كل من في بيت المقدس عن بكرة أبيهم !! لقد قُطعت عشرة آلاف رقبة! كان ذلك يوم الجمعة الثاني عشر من 22 شعبان سنة (أربعمئة واثنين وتسعين).. حوصرت المدينة لمدة شهر كامل.. رموا السهام على الطيور الطائرة فوق سماء القدس وعلى الدواب التي تجري على الأرض.. عدّوا الأنفاس وضيقوا الخناق وصارت المدينة عارية تمامًا وباردة تنتظر لحظة الإجهاز عليها..

غرق بيت المقدس في العمى وتحطّبت الأغصان.. كان الناس يتراكضون ويفرون كما تفر حبات المسبحة المفروطة في كل حدب وصوب.. لا مكان يهربون إليه.. يتدحرجون في الطرق.. كل هروب هو حتف، وكل عكاز هو رمح، وكل ركن هو فخ!!

العيون ملأى رعبًا ويأسًا.. أصوات الاستغاثات تملأ المدينة.. ثم ما لبثت أن بدأت الأصوات تهدأ وتهدأ حتى غارت تمامًا فلم تعد تسمع في المدينة إلا قهقهات المنتصرين الذين ذبحوا سبعين ألفًا من النساء والأطفال والرجال..

أقدام وأيدٍ مقلوعة.. أحذية مع بقية أقدام.. أفواه فاغرة.. حدقات سائلة على الوجوه.. رُضَّع يلتقمون أثداء أمهاتهم المبتورة.. جثث متراكمة في الأزقة والحواري فلا تستطيع التقدم خطوة واحدة بينها..

أنين لا يهدأ.. بعض الجثث كانت مستلقية بهدوء وعلى أطراف عيونها بلورات دمع متكورة.. وجثث تكورت بجانب أحشائها التي خرجت لتوها!!

الشمس ترسل لهيبها وكأنها سياط يضرب الجثث ويجفف الدماء.. الذباب الأسود يطنّ ويحوم فوق الأجساد المثقوبة.. والعيون المسمولة.. الجرذان تتقافز.. تقضم إصبعًا أو قدمًا ثم تجري هاربة.. الديدان تزحف بنهم نحو الجثث!!

تسقط القدس بعد شهر كامل من الحصار.. لم تُرد السقوط.. حاولت كثيرًا.. لكن لم يكن ثمة كتف تستند إليه.. صنع الغزاة الصليبيون برجين خشبيين لكي يرتفعوا فوق أسوار المدينة ويخترقوها واستطاع المسلمون بسهامهم المشتعلة إحراق البرج الأول وتعطيل عمله وإعاقة تقدم الغزاة نحو المدينة.. إلا أنهم لم يستطيعوا أن يحرقوا البرج الثاني الذي استخدمه الصليبيون للعبور إلى داخل المدينة!

سقطت بيت المقدس.. وكان لسقوطها صوت مدوٍّ!

لكن الصوت الأعلى من السقوط ومن المجزرة.. هو صمت العالم الإسلامي!!

صمتٌ مدوٍّ!!

نعم.. فقد يعلو صوت الصمت البشع المخزي المذلّ على كل صوت مهما علا...

الصمت المخزي يجرح بهاء الشهداء ويرسّخ للهزيمة ويجمّلها ويقبل بها!!

الصمت.. كفران بالتغيير وتسليم باليأس والقنوط وقتل لكل أمل بالنصر..

سقوط القدس كان بداية السقوط.. وليس نهاية المطاف.. كان الأمر مرعبًا..

لم يصرخ أحد في العالم الإسلامي.. لم يقل أحدهم لا في وجه الغزاة!!

العالم الإسلامي كان يعيش الذل والعار بوصفه حكمة وعقلانية وتروًّا!!

جعل لقوة الغزاة ووحشيتهم وزنًا.. جعل منهم قوة لا تقهر وراية لا تُنكّس ومنارة لا تُطفأ..

صمتوا وفاحت رائحة الهزيمة في الأرجاء.. وإن لها لرائحة تزكم الأنوف وتُذل الأعناق.. وبدا أن الناس اعتادت تلك الرائحة!!

لم يبق في القدس إلا الحامية الفاطمية وواليها افتخار الدولة وعدد قليل جداً من السكان.. أبقاهم الصليبيون لا رحمة ولا رأفة بهم؛ بل حتى يقوموا بدفن الجثث وغسل الطرق من آثار الدماء والجيف!!

افتخار الدولة وحاشيته سلِم من المذبحة!! وهذا ما جعل الناس يشكّون في أمر تواطئه مع الغزاة الصليبيين والاتفاق معهم على التنازل عن القدس مقابل أن يغض الصليبيون الطرف عن مصر!!

ومع توالي هجمات الصليبيين على بلاد الشام.. فقد استحدثوا طرقًا أخرى للتعامل مع أهالي البلاد المحتلة.. فبدل القتل والبتر

والسمل.. اختاروا أسر ضحاياهم.. فأبقوا على حياة النساء من أجل الاستفادة منهن في الأعمال المختلفة وأبقوا على حياة العلماء والمحدِّثين وأصحاب المكانة طمعًا في الفدية.. وكثيرًا ما أبقوا على حياة كبار العلماء وطالبوا بفداء كبير ومبالغ ضخمة ترفد خزائنهم الفارغة..

لكنهم ومع رغبتهم في الحصول على الأموال كانوا لا يتورعون عن قتل هؤلاء الأئمة والعلماء والمحدثين إن تأخر الفداء!

***

ذهبت لأسلِّم على التاجرَين الدمشقيَّين.. استقبلاني بمحبة وحفاوة بالغة خاصة بعدما عرفوا أني أندلسي مغربي.. ودعوني للجلوس معهم واستفاضوا في السؤال عن أحوال المسلمين في إشبيلية وفي فاس.. وسألاني إن كنت أعرف أحدًا من الأسرى المغاربة ليفتدوهم.. لقد كان أحد التاجرين يتنفس بصعوبة وهو يتحدث عن الأسرى.. كنتُ أشعر بكلماته تترنح بين شفتيه.. وقد هاله ما تعرض له إخوانه:

قال:

«كيف نترك إخواننا في أيدي الصليبيين.. لقد كانت الأخبار تتوالى تباعًا.. وتجعل الواحد منا لا يستطيع بلع لقمة طعام ولا شرب كأس ماء.. فكيف نستطيع النوم وقد سمعنا أن الأسرى يُجبَرون على حمل رؤوس قتلاهم لاستعراضهم في شوارع العدو الصليبي ؟!! وكيف نستطيع الابتسام وقد وصلتنا أخبار عن أسرى يُعذَّبون حتى الموت.. أو يُقادون من قبل الغزاة مكمَّمي الأفواه والعيون ليدلوهم على أماكن ثرواتهم وممتلكاتهم.. لكن هؤلاء الأسرى كانوا يفضلون الموت على الذل والهوان والعار.. وعندما يصلون لأماكن آبارهم يقفز الواحد منهم

تلو الآخر في البئر حتى لا يتمرغوا في وحل المهانة والعجز!!»

بدا الأسر لي إجابة مفزعة كتبتها أصابع منحنية.. وقلوب مصهورة ألمًا!!

كانت أسئلة الحرية وجهاد الصليبيين والفداء لا تجد إجابة لها على طول الساحل المحتل..

لم تكن ثمة إجابة سوى الأسر!!

ولم يكن ثمة هتاف سوى الاستسلام!!

«من جالس الذاكرين انتبه من غفلته»

أبو مدين الغوث

الكلمة هي التي تسُل السيف من غمده.. وتفك أزرار قميص يغلي تحته قلب مضمّخ بحب الأوطان..

وفي أحيان كثيرة تغدو كلمة واحدة صادقة كأنها فجر يوقظ عطر ألف وردة يابسة!!

مشهد الآلاف وهي مجتمعة حول شيخ جليل أثارت دهشتي.. الجموع صامتة.. ذاهلة.. باكية وكأن على رؤوسها الطير.. إلا أنني أزعم سماع دقات قلوبهم التي تغلي كمرجل.. فالشيخ يحكي وجع أهلنا في الشام.. والكل كان مثقلاً موجوعًا بوجع أهل الشام..

سمعت الكثير من المشايخ والعلماء والفقهاء في فاس.. لكن عندما وقعت عيني على هذا الشيخ وقع شيء غريب في قلبي!!

كانت عيناه تتبعانني مع أنني بعيد عنه كثيرًا!!

شيخ جليل يميل إلى الطول.. عريض الجبهة.. ذو بشرة سمراء.. يصل شعره إلى كتفيه.. لحيته متوسطة الطول والكثافة.. عريض المنكبين.. يمتلئ صوته عذوبة وقوة وحنانًا.. ينطق الحروف بطريقة مميزة تثير الانتباه لدى السامع.. أما حديثه فهو من الروعة بحيث يُشعل فيك الحماسة ويجعل الإيمان يسري في أوصالك وعروقك وكأنك تعرف الله لأول مرة!!

حاولت اختراق الجموع لعلي أحظى بمكانة قريبة منه، ولكنني لم أفلح في ذلك.. اقتربت من أحدهم وسألته عن اسم ذلك الشيخ فحدجني بنظرة غريبة وكأنه يقول لي.. وهل هناك من لا يعرف الشيخ عبد القادر الجيلاني!!

في تلك اللحظة أغمضت عيني وعدت إلى الوراء كثيرًا.. استرجعت ما كان يحكيه لي الشيخ ابن حرزهم عن الشيخ عبد القادر الجيلاني ومدرسته التي أتمّ بناءها في بغداد.. تلك المدرسة التي رتقت أوجاع أبناء النازحين الذين فروا من الاحتلال الصليبي.. فتولت تدريسهم وتعليمهم على فنون القتال ومواجهة الأعداء وعبّدت الطريق أمام الزنكيين لخوض غمار الحروب ضد الصليبيين ورفدت جيش الزنكيين بالمقاتلين الأشاوس الأبطال..

لم تكن مجرد مدرسة!! لقد كانت كتفًا وسندًا للمجاهدين.. هذه المدرسة هي الغصن الذي غدا سهمًا في قلوب الغزاة.. هي التي هيأت النفوس وحرثتها جيدًا.. فقد خرّج الشيخ (أربعمئة) عالم.. أعدهم نفسيًا ومعنويًا.. ثم أطلقهم إلى مدنهم وقراهم ليُنشئوا مدارس في بلدانهم تسير على نهج المدرسة القادرية التي تُعنى بهم إيمانيًا وروحيًا ونفسيًا وتعنى بمفهوم النصر والهزيمة.. وكان دوره مكمّلاً لدور نور الدين زنكي.. فالشيخ يُعنى بتربية النفوس، ويتولى البناء الداخلي والإيماني للإنسان، والقائد نور الدين زنكي كان يتولى أمر التدريب على الجهاد..

الله وحده يعلم مدى محبتي لهذا الشيخ الذي لم أره من قبل!! فقد كنت على يقين كما شيخي بأن الانتصارات التي حققها الزنكيون لم تكن لتحصل لولا عبد القادر الجيلاني ومدارسه!!

فقد كان الشيخ على علم بأسلحة الفرنج وخططهم وطرق تجسسهم

وطرق الهجوم والدفاع التي يستخدمونها، وقد كان يدرب طلابه على الرصد والمراقبة لتحركات العدو.. فبعدما ينهي طلابه ومريدوه علومهم الشرعية ويتأكد من حبل يقينهم المشدود.. ينثرهم على الثغور والحدود والزوايا الحدودية كما ينثر القمح في السهل!!

وكان الفرنجة يمرّون من هذه الزوايا ولا يلحظون أمرها ودورها!! فلم يكونوا يتخيلون أن أصحاب الخرق الصوفية.. والزهّاد ينضمّون للجيوش عند مرورهم ويذيقون العدو مُرّ النزال..

وقد بلغ هؤلاء الزهاد مبلغًا عظيمًا في التخطيط والرسم لتفاصيل المعارك والأماكن والقلاع والحصون.. حتى أن أحد طلاب الشيخ كان ماهرًا في صنع المجسَّمات للقلاع والحصون الإفرنجية.. مما يسهِّل عمل الجيش في الهجوم والزحف ومعرفة أماكن الضعف في الحصون.

***

وعندما بدأ الشيخ بالدعاء.. وأخذت الأصوات تؤمِّن على دعائه.. فتحت عيني فوجدت العيون والقلوب متعلقة بالشيخ في تلك اللحظة شعرت حقًا بأن البلاد التي سقطت في أيدي الصليبين ستعود قريبًا.. قريبًا جداً.. فالنصر مجبول بيقين المقاتل.. لا بسيفه !!

وصرت في كل يوم أحرص على سماعه.. وتيقنت أن الذي يقود الجيوش هم العلماء.. وأن الذي يفتح القلاع هم الفقهاء والعارفون بالله.. وأن المجاهدين ما هم إلا صنعة شيوخهم وعلمائهم..

ها أنا أتعلم في كل يوم أضعاف ما تعلمته في سنوات..

في ذات يوم نجحت في الجلوس بقرب الشيخ عبد القادر الجيلاني.. لاحظ وجودي وكانت عيناه تشعان محبة وحنوّاً لم أشعر بهما من قبل.. شجعاني على الاقتراب منه والسلام عليه..

عرّفته بنفسي.. قلت له:

أنا يونس الأشبيلي.. وضع يده على صدري ودعا لي.. ثم أمسك بكتاب الله وأطال التأمّل فيه.. والكل يرقب ما سيحكي.. ثم تلى قول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ..﴾ وقال:

«اعلم يا بني.. أن كل ابتلاء هو اختبار.. وقبل كل معركة فاصلة لابد من غربلة.. ولن تتم الغربلة إلا باختبار.. فليس كل من في الصفِّ جند.. وإن بدا لك أنهم يحملون السيوف ويتدرَّعون بالدروع.. فالله يختبر قدرتك على إشهار سيفك في وجه شهوتك قبل وجه عدوك..

ومادة الاختبار تكون فيما تعلق به قلبك واشتدت إليك حاجته وعظُم في صدرك، واعلم أن توالي الابتلاءات وتتابعها يعني اقتراب المعركة الكبرى، وتوالي سقوط الكثيرين يعني أن الله لا يريد أن يحمل راية النصر إلا الأطهار.. ولا يمتطي خيل التحرير إلا الأنقياء المخلصين..

فقوم طالوت كانوا ثمانمئة ألف، وظل طالوت يغربلهم حتى صاروا ثلاثمئة وخمسة عشر.. فالنصر صناعة الخُلَّص.. وكلما اشتدّت المحن وزادت الابتلاءات على الأمة.. فاعلم أن المعركة الفاصلة على مقربة.. وكلما علا الخبث وفرغت السلال من الغِلال فاعلم أن الله يريد أن يحيي الأمة من جديد..

طالوت اختبر جيشه بنهر؛ لأنهم عطاشى.. فمن يقدر على ظمئه.. يقدر على عدوه..

ومن يشهر سيفه في وجه شهوته.. يستطيع إشهار سيفه في وجه عدوه!!

ومن لم ينتصر على شهوته ورغبته فلن ينتصر على عدوه، ومن لم ينقِّ بذاره فستكون غلّته خاسرة يعلوها السوس وهنا تكون الكارثة..

الله يختبر يقينك المعلّق بين الكاف والنون..

والنصر مرهون بالصبر، والصبر يحتاج إلى دُربة.. والله يدّخر النصر للصفوة.. ولمن توضأ بدمع التوبة..

(لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ)

اعلم يا بني.. بأن ليس كل الورد يحمل العطر..

وليس كل من حولك درعًا!»

وكانت هذه هي الوصية السابعة

وأنهى حديثه وكان أول شيء خطر في بالي تلك اللحظة أن ألحق به إلى بغداد لأستزيد من علمه.

«المحبة الأنس بالله والشوق اليه»

أبو مدين الغوث

أسير بصحبة الشيخ الجيلاني إلى بغداد بعدما طلبت مصاحبته والاستزادة من علمه والتتلمذ على يديه..

أتلقَّط كلماته كما يتلقط الطير الحبَّ المنثور.. أحدِّق به والنشوة تملأ روحي.. خرجنا معًا صباح يوم الجمعة من شهر ربيع الأول وما أن خرجنا وبدأت الصحراء تترامى أمامنا.. فلا صوت ولا حراك، فالصمت هو سيد الصحراء، والريح تحمل إلينا نفحات مكة وكأنها تستبقينا ألا نخرج!!

أخذ الشيخ يتلو سورة الكهف، وعندما وصل إلى قوله تعالى ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاَثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ توقف شيخي عند هذه الآية ولم يكمل.. ولاحظت أنه أخذ يبتعد عن القافلة وعن الناس.. يخرج من السرب ويتأخر عنه.. يتأمل السماء والفلاة ويستمطر البركات.. كنتُ أراقبه عن بعد.. ثم تجرأت واقتربت منه.. فسألني:

لماذا تلحق بي؟

قلت لأونس وحدتك.. فردّ علي قائلاً:

«من كان مع الله فلا يستوحش أبدًا.. ولن يدرك معنى الأُنس بالله إلا من ذاق.. ومن ذاق غرف..

ومن ذاق الأُنس بالله.. ثقل على قلبه مخالطة المخلوقين!!

ومن استلذّ بعذوبة الخلوة مع ربه.. خرج من قلبه سواه!!

يا بني..

إن موسى لمّا كلّمه ربه.. مكث دهرًا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغثيان!!

يا بني..

لا تجعل أُنسك مرهونًا بوجود الناس حولك.. فما هم إلا أسباب.. فإن أنِست بالمخلوقين عاقبك الله بصدودهم عنك..

استأنِس بهم بمقدار..

وقل..

يا رب أنت الأنيس..

نعوذ بك أن نأنس بأحد سواك..

نأنس به.. فإذا الرمال الظمأى تعصر بحرًا!!

وإذا البشائر تهلّ وتولد..

والمضائق تتسع والأقفال تصبح مخرجًا!!»

ثم أخذ الشيخ يردِّد:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلاَثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾

يرددها ما شاء الله له أن يردد.. فيرتدّ صداها في الكون حوله..

ثم نظر في عيني ولم أجرؤ على النظر في عينيه اللتين تفيضان أبوّة.. سكبت في قلبي حزنًا فوق حزني !!

جلست تلك الليلة قربه.. ولم يأمرني بالانصراف.. بل ظل يتأمّل ويكتب وكأنني غير موجود.. ثم أخذ يستظهر ما كتب.. وقال لي:

«﴿سَيَقُولُونَ ثَلاَثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾

يا بني..

إن الناس يرقبون الظاهر ويعتنون بزخرف العبادة لا بروحها.. فإيّاك أن تقف على العتبات وهاجِر إلى المعنى..

يا بني..

لا تضيِّق المعنى وتنشغل بعدد أهل الكهف وأسمائهم وأشكالهم وأحوالهم.. فمن يجدِّف في الرمل أخرق!!

لا تنشغل بالتوافه من الأمور وبأسئلة لا تضيف لك قيمة ولا مغزى!!

﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾

هذه الآية توصيك بأن لا تكون مثل العامة.. تسأل عما لا ينفع!

تصحح لك المسار وتجعلك تقطف الفكرة..

واعلم يا بني.. أن من يسأل عما لا ينفع.. لن يعبر!

واعلم..

أن السرَّ والإعجاز في المعنى.. وأن سؤالك مرآة عقلك.. فلا تملأ عقلك بقصاصات ورق!!

فالأسئلة حبلى بنيَّتك وبما يشغلك..

أعرض عن الشكليات.. حينها ستُكشف لك الكنايات وستُرفع الحجب وتُفتح الأبواب..

واعلم..

أن من انشغل بأسئلة الظاهر تعب منه الباطن!

ومن اهتم بالعدّ والتعداد.. أهدر روحه وأسر ضوءه فانقبض قلبه...

فسِرُّ الناي في رنته لا في شكله.. أسقط التفاصيل والتوافه من حياتك وتعلم كيف تضيِّق الشكل ليتَّسع لك المعنى..

يا بني إنك لن تصل للمعاني إلا بالخلوة والعزلة.. في العزلة يصبح القلب دلوًا يغرف الحكمة، وتصبح المعاني المكسورة متلألئة تامة.. والمجازات واضحة والعزلة هي التي تمنحك الإيمان المعتّق العميق.. تدخل صومعتك فيستقيم الميل وتضيء الروح بالرشد والفهم..»

وكانت هذه هي الوصية الثامنة في حياتي..

عدنا لنلحق بالركب.. وبينما كانت القافلة تشق طريقها إذ لاحت سحابة وظلّلتنا.. فوقف الشيخ الجيلاني وتأمل الغيمة مبتسمًا وكأنه يستعيد ذكرى حصلت معه في يوم ما.. صمت قليلاً ثم حرّك رأسه يمنة ويسرة ووضع يده في يدي وقال:

تعال أحدثك عن قصتي مع الغيمة..

طار عقلي فوق الغيمة فرحًا بما سأسمع..

قال شيخي:

«كنت أخرج إلى الفلاة.. فالمعاني تبقى على الحواف ولا يمكن القبض عليها إلا بالتأمل والخلوة، وبينما كنت أسير إذ عرض لي إبليس على هيئة غمامة وناداني باسمي:

يا عبد القادر.. فالتفتُّ إلى الغمامة.. فقال:

أنا ربك وقد أحللتُ لك ما حرمته على عبادي وأسقطتُ عنك الحرام وأبحتُ لك ما تهوى نفسك..

فقلت له: اخسأ يا عدوّ الله.. إنك الشيطان..

فقال: لقد فتنتُ قبلك سبعين عابدًا ولم ينج أحد من فعلتي.. فبماذا نجوت مني؟

قلت له: نجوت منك بعلمي عن ربي.. فذابت الغمامة وتمزقت نتفًا!!

في هذه اللحظة وقفت مذهولاً وسألته:

وكيف عرفت أنه شيطان؟

زمّ شفتيه وقال مبتسمًا:

«الله لم يسقط الفرائض عن حبيبه ونبيه محمد.. فكيف يسقطها عن عبد القادر الجيلاني.. العبد الفقير..

والله يقول في كتابه إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والله لا يأمر بالفحشاء والمنكر..

وعرفته لمّا قال: أنا ربك.. ولم يستطع قول أنا الله!!»

في هذا اليوم زاد يقيني بأن الجهل قنّاص ماجِن.. يقنص طريدته المكبَّلة.. المخدَّرة العقل.. المغمضة العين فيرديها أسفل سافلين.. وعرفت أن العلم رسول يبثّ في اليابسات الحياة ويجيب على الأسئلة العالقات ويطفئ الشك..

وبينما كنت أمشي بصحبة الشيخ والصمت يسود بيننا.. راح الشيخ يقول:

«الشيطان يقطع طريقنا كل يوم وكل ساعة.. يتساقط المنافقون والذين استولت الدنيا على قلوبهم.. لذلك لن تهزم الشيطان إلا إذا جاهدت نفسك وكابدتها.. إذا ملكت زمام نفسك.. انتصرت على شيطانك ولن تملك زمام نفسك إلا إذا عرفتها وعرفت ربك.. لا يمكن أن تنتصر خارجيًا إلا إذا انتصرت داخليًا..»

وما كدنا نقطع نصف المسافة بين مكة وبغداد حتى حدث هرج ومرج وعلت الأصوات وظهر أحدهم يترنح وفي يده خنجر يلوح به ذات اليمين وذات الشمال.. يروع النساء والصبيان والأطفال.. للوهلة الأولى ظننته قاطع طريق.. ثم بعد أن تأملته فإذا هو أحد أفراد القافلة!!

الناس مذهولون.. فكيف بحاجٍّ أنهى مناسك الحج لتوّه يحتسي الخمر؟!!

كيف تمتلئ أمتعته بقناني الخمر وتفوح الرائحة من التراب الذي يدوس عليه؟

أخذ الحجّاج يسبّونه.. وبعضهم أشاح وجهه عنه وهو يحوقل.. آخرون يراقبون هيجان السكران من بعيد ثم يبصقون جانبًا ويلعنونه.. بعضهم اقترب منه يريد صفعه.. أما الشيخ فقد وقف والدموع تملأ عينيه.. عندما وقف استطالت الأعناق.. فالكل ينتظر كلمته..

قال:

«ما أسهل أن تنظر إلى صاحب المعصية باحتقار وازدراء وكراهية.. ما أسهل أن تدعو عليه بدلاً من أن تدعو له.. ما أسهل أن تكون عونًا للشيطان عليه بدلاً من أن تكون عونًا له على الشيطان!!

من منا لم يخطئ؟

من منا لم يظلم نفسه؟

إن نبذ المذنب ولعنه وسبّه.. تزيد من مساحة الشر في نفسه.. هل منكم من يعرف مصير هذا السكران؟

هل منكم من يعرف بماذا سيُختم له؟

حينها بدأ السكران يهدأ.. ورمى الخنجر وكأنه بكلمات الشيخ تخلص من تأثير المسكر!!

أكمل الشيخ..

ما فعلتموه يذكرني بقصة حدثت مع رسول الله.. إذ كان هناك صحابي اسمه (عبدالله) يحب الرسول حبًا جمًا.. هو صحابي ظريف فقير يتمنى أن يُهدي للرسول - ﷺ - عكّة من سمن أو عسل، ولكن

لا يملك ثمن تلك العكّة.. فكان يحتال على الأمر بأن يسرع إلى أي قافلة تدخل المدينة فيأخذ العسل أو السمن ويهديها للنبي فإذا جاء صاحب العسل أو السمن يريد أن يتقاضى الثمن دفعه إلى الرسول وقال له:

أعطِ التاجر الثمن!!

فيقول له الرسول - ﷺ -: ألم تهده إليّ؟!

فيقول الصحابي الظريف: بلى ولكن ليس معي الثمن!

هذا الصحابي الفقير الظريف المحب للرسول - ﷺ - كان مبتلى بشرب الخمر.. وكثيرًا ما أُتي به إلى النبي - ﷺ - سكران مترنحًا ثملاً من كثرة الشرب.. فيأمر النبي بجلده.. وذات يوم جيء به إلى النبي - ﷺ - وجلده وعندما انصرف كان أحد الصحابة يشهد الجلد فقال:

اللهم العنْه!! ما أكثر ما يُؤتى به!!

فإذا النبي يقول: «لا تلعنوه، فوالله ما علمت إنه ليحب الله ورسوله.. لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم»[1]

فلا تجرّوا المذنب إلى القاع أكثر وأكثر بلعنه وشتمه والإعراض عنه!! واعلموا بأن أفضل الطرق لتخليص المذنب من خطاياه تذكيره بالجمال الكامن فيه.. والتركيز على بقعة الضوء الساطعة عنده.. فهذا يشكل رافعة له.. ترفعه عن مستنقع الذنوب..

فلا تضخموا الخطأ والهنة والهفوة.. ولا حتى الكبيرة!!

لا تجعلوا همّكم عيوب الآخرين.. فكيف تُعرِضون عن عيوبكم وتحصون مساوئ الآخرين.. تطلبون عثراتهم وتخفون محاسنهم..؟!!

---

(1) رواه البخاري.

«الطمع في الخلق شك في الخالق»

أبو مدين الغوث

سنوات طويلة مرّت وأنا بصحبة شيخي عبد القادر الجيلاني.. أنا الآن في طريقي إلى بلادي.. أمخر عباب الصحراء.. الصحراء التي لا تحجب عنك شيئًا!! ومع كل جفافها وقسوتها، ومع كل خطوة تخطوها ثمة فرج بعد السراب، وثمة واحة تنتظرك فتغريك بالمزيد من الصبر والقوة..

هاهي الحكايات تتدافع في رأسي كما تتدافع حبّات رمل الصحراء بين أقدامي.. فأعود بخيالي إلى الوراء.. إلى عشر سنين مضت في بغداد.. بصحبة المريدين والطلاب الذين توافدوا على مدرسة الشيخ عبد القادر الجيلاني..

لم يكن جُلُّهم صغارًا في السن.. فقد كان الكثير منهم يكبرني بعشر سنوات على الأقل.. جاؤوا للشيخ بعدما أنهكتهم الهزائم المتتالية والسقوط المريع للبلدات والقرى في أيدي الصليبيين.. لقد كانت تلك الحسرة تتثقب قلوبهم وتحرق أرواحهم.. ليس على ضياع الديار والمقدسات فقط.. بل على ضياع الأخوّة والشرف والدين والمروءة!!

فبينما كانت بعض البلدات تنتظر الضِّماد والنصرة من الإخوة.. وإذا بهم يسنّون السكاكين ليشاركوا الصليبيين في الذبح!! فقد ساوم

القادة وفاوضوا وباعوا ولم يرتعشوا أو يترددوا.. لأن مصالحهم ومنافعهم هي الميزان، وما دروا بأن الدَّور آت عليهم وعلى كل من كشف ستر ذوي القربى ورمى لحمهم للكلاب الإفرنجية..

حيواتنا تتقاطع مع بعضها.. وبدونا إنا وإياهم كشطرين في قصيدة طويلة.. قافيتها وجع باذخ.. أرواحنا أنهكتها ريح عاصف نخرت فينا الكثير من الندوب.. لكننا مع شيخنا حوّلنا الثقوب إلى ناي يعزف لحن النصر..

كان من عادة شيخنا الجميلة أن يخرج بنا بين الفينة والأخرى إلى خارج بغداد.. في العراء.. نجلس على حافة نهر دجلة الذي تفوح منه رائحة رطوبة لزجة موشَّحة بتلويحة النخل السامقة.. نتدارس.. نلهو.. نبوح ونفرد أوجاعنا وهمومنا على الأرض ونتشاركها كما نتشارك اللقمة..

لم تكن تحلو هذه الرحلات إلا بالبوح.. فالكثير من التلاميذ والمريدين غرباء.. نازحون مقادسة أو نازحون من بلدات وقرى احتلها الصليبيون.. وبينما كان كل واحد فينا يروي قصته.. كانت أرواحنا تتآلف وتتشابك بطريقة لا يمكن الفكاك منها، وكأن القدر كان يرتِّب لنا أن نجتمع فلا نفترق أبدًا..

لي حزن أنطاكية.. ودموع الرها ونزف معرة النعمان.. لي ظمأ القدس وجرحها الغائر.. ستبقى قصص وحكايات إخوتي النازحين القِبلة التي لا يصحُّ الجهاد دونها..

لا أستطيع أن أفهم كيف تحمّلت روحي كل تلك الحكايات الموجعة.. إلا أنني اكتشفت تفسيرًا واحدًا لهذه القدرة على التحمُّل.. فقد كانت تلك الحكايات سيفي الذي أسنّه للمواجهة القادمة..

أنا الآن مقيد بآلاف الحكايات التي حكاها لي رفاقي أسامة ونور الدين.. ورضوان وسنان.. عشت هذه المذابح التي عايشوها وكأنني رأيتها بأم عيني، ولم أخرج من سطوة تلك الصور التي رسموها أمام عيني..

لقد أدركت ذلك الوجع المقدَّس.. وفهمت معنى تلك الرجفة في القلب لوطن ممزَّق.. فتحوا قلاعه للأنجاس وصار السماسرة والمجرمون هم القادة البارعون في تزيين العجز والخذلان والخيانة!!

الذين يتفاوضون ويقبضون ثمن صفقاتهم الملعونة!!

كان أسامة صديق روحي شاهدًا على مذبحة (معرّة النعمان) عندما بدأت الحملة الصليبية الأولى، حيث كان في الخامسة من عمره عندما داهم الصليبيون بلدته ونفذوا حصارًا شديدًا استمر لأسابيع طويلة..

حينها قام بعض وجهاء المدينة وقادتها بالاتصال بقائد الإفرنج (بوهيموند) وتفاوضوا معه.. فقد وصلت إليهم أنباء سقوط أنطاكية التي لا تبعد عنهم سوى مسيرة ثلاثة أيام..

كانت عمته الكبيرة حليمة وجدته وعمه قد هربوا من المدينة قبل وقوع المذبحة.. فقد شعروا بالخطر القادم مع أن الصليبيين هاجموا كافة البلدات المحيطة بالمَعرّة لكنهم لم يقتربوا منها!!

والد أسامة رفض الخروج.. رغم أن الصليبيين قتلوا وعاثوا فسادًا في القرى المجاورة..!!

وحصل الاتفاق في ليلة ظلماء شديدة البرودة حتى لكأنك تتخيل جهنم بردًا يقصُّ أعضاءك عضوًا تلو الآخر!!

نصّ الاتفاق بأن يتوقف المحاربون والمجاهدون عن القتال ويتركوا

ثكناتهم ويرموا سلاحهم في الآبار مقابل الأمان الذي سيمنحه الإفرنج لهم.. وفعلاً ترك المقاتلون المجاهدون أماكنهم وعادوا لبيوتهم وأقبيتهم وبقي الأهالي في تلك الليلة يرتعدون بردًا وخوفًا وهلعًا..

قبيل الفجر بقليل تقدمت جحافل الصليبيين نحو المدينة التي أنهكها الجوع والبرد.. المدينة العارية من السلاح، الواهنة المستسلمة، وبعدما كانت ترتعش بردًا هاهي تشتعل بالنيران.. وتصير جهنم أخرى بلون آخر في غضون ساعات..

كان صديقي أسامة قد اختبأ تحت أحد القدور النحاسية الكبيرة التي كان يصنعها والده النحّاس ليرى بعينيه ما لا يُمحى وإن تقادمت السنون.. لقد كان يستطيع أن يصف لي شكل قاتل أبيه وأمه.. لكنه لم يكن يتذكر أمه وأباه!!

وبينما كانت أمّه تلملم أطفالها لتحميهم تحت جناحها وتفرّ بهم هاربة.. إذ باغتها ذلك الصليبي وبضربة واحدة فصل رأسها عن جسدها وتدحرج الرأس بالقرب من القِدر.. ثم أخذ أخاه الرضيع الذي لم يتجاوز ثلاثة أشهر والأخ الآخر الذي يكبره بسنتين.. حملهم من رؤوسهم كما كان يحمل خروفًا وذهب بغنيمته!!

خرج أسامة بعد ثلاثة أيام من تحت القِدر، وكان الصليبيون مشغولين بسلق الجثث وأكلها.. ورأى الكثير من الأطفال الرضع ومنهم أخاه وقد شكّوه في أسياخ كما يُشك لحم الضأن الصغير!!

مازالت رائحة شواء لحم أخيه ملتصقة بأنفه.. كان يرجوني دومًا أن أدلّه على طريقة يرتق بها الفتوق التي أصابت روحه.. أن يرمِّم الحروق والفقد..

كل أجساد الشهداء كانت تُسلق أو تُشوى وجهنم لا يهدأ

سعيرها.. خرج أسامة يومها وحيدًا خائفًا.. ضائعًا.. مزدحم الذاكرة بمشاهد ستظل تسيل وتعكّر أيامه المقبلة..

سار وسار حتى وجد عمّته حليمة بالقرب من الكهف الذي هربوا إليه..

أخذ نور الدين يكمل:

لم يكن ليتم للصليبيين هذا الأمر إلا بالخيانة والتواطؤ..

فلولا وصول سفارة من الدولة الفاطمية المصرية وتفاوضهم مع الجيش واتفاقهم مع الصليبيين بأن يتركوا سوريا وفلسطين للفاطميين ويأخذ الصليبيون أنطاكية ومدن الشمال ما حدثت المذبحة !

هذا الاتفاق كان طعنة في صدر الأمة، فصار المسلمون بلا ظهير ولا سند، وتجرّأ الصليبيون أكثر وأكثر عندما عرفوا أن المسلمين يسلّمون رقاب بعضهم لأعدائهم.. وهذا شجّع الصليبيين على الاستفراد بالمسلمين كلٌّ على حدة.. ففرضوا سياستهم على المنطقة بأسرها..

لقد تمزّقت الرئة المسلمة.. فعندما استولى الصليبيون على أنطاكية والرها والمَعرّة وغيرها.. وصلوا للقدس واحتلوها ولم يرعوا في المسلمين إلًّا ولا ذمّة..

لقد كان هذا الاتفاق علامة مخزية للحال الذي وصلت إليه الأمة الإسلامية من ضياع واستعداد لبيع دمائهم.. دماء بعضهم..

اتفاق العار رفع الروح المعنوية للصليبيين.. إذ أدركوا أن الأرض التي يمشون عليها محروثة بالعملاء والسماسرة والبائعين الذين تسابقوا لبيع إخوتهم بثمن بخس..

مذبحة بيت المقدس لم تكن يومًا واحدًا.. بل كانت عشرة أيام بلياليها..

لم أشهد تلك المجزرة.. لكنني رأيتها بعيون جدي الذي ظل يحتفظ بأظفر من أظافر جدتي التي قطع يدها صليبي غاصب ليستل منه خاتمًا ذهبيًا!!

جماجم الشهداء تراكمت فوق بعضها حتى أنه فاق علوّها أسوار القدس.. الكثير من الجثث بعدما أُحرقت نبش الصليبيون في رمادها بحثًا عن الذهب!!

«أهل الصدق قليل في أهل الصلاح»
أبو مدين الغوث

عندما أحكي قصتي.. تحضر أمي وخلفها غابات جيلان الملوّنة كألوان قوس قزح السبعة.. تدغدغ بصر الطفل الصغير.. عالم كله ملوّن.. ومطر خالد لا يتوقف، وجبال تحملك عاليًا إلى السماء لتخيط جراحك النازفة.. وبحر يسحرك بلحنه الموسيقي العذب.. فتنزل سريعًا من الجبل لتتلقفك أمواج البحر وتنفخ فيك روحًا أخرى.. ألوان تحيط بك من كل جانب.. ثياب الأهالي الملوّنة بالأصفر والقرمزي والأخضر.. فراشات ملوّنة تحرّرت من الشرانق.. أبواب ملونة بالحنين.. وشبابيك مفتوحة تودّع الراحلين..

إخالني الآن أمشي كألف مستقيمة رافعًا رأسي لا أحتاج إلا لهمزة كي أكتمل.. هذه الهمزة هي التي خاطتها أمي.. عندما قال لها شيخي:

«ابنك يتعلم في يوم ما لا يتعلمه غيره في أسبوع!!»

حينها التفتت أمي إليّ وأنا أصغر إخوتي الأيتام وقد أنهكتها الرُّملة والأيام العجاف.. وشعرت بأن عليها أن ترعاني بشكل مختلف!!

أخذت أمي تفكر بطريقة تعلمني بها.. وحدثتها نفسها بأن خير طريق لذلك هو السفر لبغداد.. حاضرة العلم والجذر الذي يحمل الماء لكل الحواضر.. فأخذت تعمل وتعمل حتى أمّنت لي مبلغًا يعينني على

طريق السفر.. وجهزتني بأحسن ما يحتاج المسافر، ورتّبت لي أموري دقّها وجلّها مع أنها كانت على مشارف الخمسين.. وكانت متيقنة بأنها لن تراني بعد ذلك، ولكنها تحاملت على نفسها في سبيلي..

قبل سفري بيوم واحد.. أرادت أن تعطيني الثمانين دينارًا التي جمعتها من كدٍّ وسهر وعمل.. لكنني رفضت ذلك وأخذت أربعين دينارًا لا غير.. فقامت إلى قميص لي ونتقته وأخذت الأربعين دينارًا وخاطتهم تحت الإبط بطريقة لا يمكن أن يستدل عليها قطّاع الطرق!!

وعندما جاء موعد سفري كانت عينا أمي حمراوين مثل الجمر، وعرفت أن ذلك من كثرة البكاء.. لكنها كانت بارعة في ضبط إيقاع صوتها بطريقة لا تشي بحزنها وألمها الذي عبَّرت عنه عيونها.. ونجحت في تحويل نظري عن عينيها إلى سماع صوتها وهي تقول وصيتها الأخيرة قبل انطلاقي..

«يا بني إياك أن تكذب.. فإن المؤمن لا يكذب أبدًا.. فالصدق يهدي إلى البرِّ والبرُّ يهدي إلى الجنة.. ومازال الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صدّيقًا..»

ودّعتني وقد انحنى قلبها وتقوَّس قبل أن أرى تقوُّس ظهرها..

ابتعدت قليلاً فإذا بها تلحق بي قائلة:

والله ما تخلّيت عنك إلا لله عز وجل.. ثم وضعت وجهي بين كفيها وكأنها تستجير وتتوسل الله وقالت:

«هذا وجه قد لا أراه إلا يوم القيامة.. يا بني تذكر ?الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ.. ?

يا بني.. لا يستوي الفراق في قسوته.. وأقساه الذي لا لقاء بعده..

يا بني..

أنفترق بعد اجتماع.. أينفرط عنقودنا وليس هناك من يلمُّه..

ترفَّق بقلب أمٍّ.. تخشى ألاَّ تلقاك في الجنة..

يا بُنيَّ كل الخسارات لها عوض إلا خسارة اللقاء في الأبد!

يا بني عدني أن نلتقي في الجنة.. واستعن على ذلك بالعلم وقربى الله وكثرة الدعاء والصلاة..»

وخرجت مع قافلة صغيرة صوب بغداد.. ولم نكد نجتاز سوى مدينة واحدة على الطريق.. حتى هاجمنا قطّاع الطرق وأخذوا كل شيء في القافلة والغريب أنه لم يتعرض لي أحد ولم يسألني أحد عما معي.. فقد كنت نحيل الجسم صغير البنية.. تبدو عليّ آثار الفقر والحاجة وزادني السفر وعثاء.. ثم تقدم أحدهم صوبي:

- أيها الصغير.. ما معك؟

فراودتني نفسي بالكذب حتى أنجو.. ثم تذكرت وصية أمي ورغبتي في لقائها في الجنة.. فصرخت بصوت عال وكأنني أقهر نفسي التي كانت تسوّل لي بالكذب:

«أربعون دينارًا!!»

فاقترب اللص مني ضاحكًا وهزّني بعنف من ياقة قميصي وقال:

«أتهزأ بي أيها الصغير !! لقد فتشتك ولم أجد شيئًا!!»

قلت:

«إنها مخاطة تحت إبطي!!»

فأخذني إلى رئيس العصابة.. وبينما بقية اللصوص يقعدون على تلة قريبة ويعدّون الأموال التي حصلوا عليها ويوزعونها بينهم.. ناداني رئيس العصابة..

قال:

«ما معك ؟»

قلت: «أربعون دينارًا»

قال: «أين هي؟»

قلت: «مخاطة في دلقي تحت إبطي.. ففتق المكان فوجد فيه أربعين دينارًا كما قلت!!»

فقال مستغربًا:

«ما الذي دفعك إلى هذا الاعتراف وكنت تستطيع المرور دون أن تنكشف؟»

قلت:

«واعدتُ أمي أن ألقاها في الجنة وأن لا أخون عهدي معها.. وكيف ألقاها وأنا أكذب والمؤمن لا يكذب أبدًا!!»

وفجأة أخذ رئيسهم يبكي وينتحب كطفل صغير.. وقال:

«أنتَ لم تخن عهد أمك ونحن نخون عهد الله من أربعين سنة.. أعاهدك يا بني وأمام كل السُّرّاق.. أنني تبت إلى الله.. وقد علّمني فتى صغير ما لم أتعلّمه في عمري الذي مضى!!»

حينها قال السُّرّاق.. «أنت رئيسنا في العصابة والسرقة.. وأنت رئيسنا في التوبة..»

وتابوا جميعهم..

***

ودخلت بغداد في عام أربعمئة واثنين وتسعين للهجرة وكانت الريح تحمل أخبار مذبحتي أنطاكية ومعرّة النعمان التي قام بها الصليبيون.. وكانت أخبار مذابح الصليبيين وتقدمهم في البلدات

الإسلامية يشبه اندلاق محبرة على ورقة.. وبدت بغداد وكأنها تتقيّأ أحزانها بعد أن امتلأت كمدًا ووجعًا على حال المسلمين..

كنت أرى الناس في بغداد منقسمين.. فمنهم لاهٍ عابث ساهٍ لا يهتم لأمر المسلمين.. ومنهم خائف.. مترقِّب حذر يمشي وكأن على رأسه الطير.. يحسب كل صيحة عليه هي العدو.. ومنهم من لا يغمض له جفن ويعصيه الدمع.. ولا يعصيه قلبه النازف !! يتابع أخبار البلدات الإسلامية التي تسقط تباعاً.. يجتمع.. يحلل ويفسر وينقم على خليفة المسلمين لصمته وتخاذله..

الناس مقيَّدون بسلاسل الذل والعار.. وقد استبدّ بهم الرعب والقهر.. وأخبار الركوع والذل تتوالى.. تلوي أذرع الناس وتطفئ ما تبقى من عزة في نفوسهم وتقطع بالفأس آخر غصن أخضر راهنوا عليه!!

***

ففي صبيحة يوم صيفي حارٍّ قائظ من صباحات بغداد.. استيقظ الناس على خبر تحرُّك الجيوش الصليبية صوب بيت المقدس.. وهذا كان معروفًا ومتوقَّعًا.. ولكن الأمر غير المتوقع ما فعله (جناح الدولة حسين بن ملاعب) الذي كان يقاتل الصليبين ويقف سدّاً منيعًا أمام تقدمهم في البلدات الإسلامية.. هاهي الأخبار تقول بأنه هرول مع المهرولين إلى حظيرة الصليبين، ومما زاد في عِظم الخطب وهوله أنه أرسل الهدايا الثمينة مقابل أن يتركوه وشأنه ولا يتعرضوا لإمارته ولعرشه المزيَّف بسوء!!

وبدأ السباق بين الأمراء المسلمين.. أيّهم يقدّم الولاء أولاً.. فتعهّد أمير شيزر لريمون الصليبي بأن لا يقف في طريق تقدمه لبيت المقدس..

ليس هذا فحسب.. بل وأرسل إليه المؤن والغذاء والشراب، وتوّج كل ذلك بأدلاّء يرشدون الصليبيين أثناء عبورهم صوب بيت المقدس.. فهؤلاء عميان.. والأرض ليست أرضهم ولا يعرفون عنها شيئًا.. ولولا الجواسيس ما جُرحت الأرض ولا نزفت.. وما هان مسلم ولا ذلّ!!

ولم يكن أمير شيزر فقط الذي دخل الحظيرة ولا أمير حمص.. بل أصبح الشاطر من أمراء المسلمين من يمسك فأسًا ليحرث الأرض أمام تقدّم الصليبيين، ولا أدري كيف تجاوزوا قول الله تعالى ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاً وَلاَ ذِمَّةً﴾

كيف مرّت عليهم هذه الآية ولم يتوقفوا عندها..؟!!

وتتابعت الأخبار التي لم تكن في الحسبان.. ولم تكد نقمة الناس وحيرتهم تبرد.. حتى يتناهى لمسامعهم خيانة أخرى.. تجعلهم أشدّ نقمة ووجعًا.. هذه المرّة كان الخبر الموجع من حلب!!

لكن الناس لم يكونوا مستغربين من والي حلب رضوان تتش فقد كان الناس ينبزونه بأبي حبة.. كناية عن بخله وشحّه.. وهو أول من أنشأ دار دعوة للباطنيين وقرّبهم إليه..

كانت الناس تتناقل أخبار رضوان تتش الذي قتل أخويه الصغيرين خوفًا على ملكه.. وكان في صراع دائم مع أخيه دُقاق حاكم دمشق.. وانشغل بمعاركه الصغيرة عن المعركة الكبرى مع الصليبيين.

وما أن صار الصليبيون على الأبواب حتى خطب ودّهم وقدّم الغالي والنفيس مقابل أن لا يتعرضوا له!!

ومع أنه غدا خالصًا للمحتل.. إلا أن الصليبيين كعادتهم رفسوه بأقدامهم ونكثوا عهودهم معه وقصفوا حلب وحاصروها وأذلوا رضوان وأخذوا منه الجزية صاغرًا ذليلاً..

كنتُ كثيرًا أفكر فيما يحدث.. فكيف لجيش جائع غريب.. لَم.. يخترق نسيج المسلمين وينجح في تكوين ثلاث إمارات صليبية وسطَ جموع المسلمين ؟ فلولا أن المسلمين تركوا جيادهم تشيخ في مضاربها.. تصهل للنفير ولا مجيب ما استطاع صليبي واحد أن يدخل ديار المسلمين!!

وتساءلت كيف تحوّلنا من زُرّاع وقاطفين إلى قطف؟!! وكيف انتصر اليباب على الخضار..!!؟

كنت أفكر في المتاهة التي صرنا فيها، ومن الذي وضعنا فيها؟ وعلى من نلقي باللائمة؟

هل نلقيها على الشعوب التي تسيّد الصمت شفاهها وغرقت عيونها بالدموع فحسب؟!

أم على الحكام الذين تركوا الجراح نازفة؟

أم نلقي باللائمة على العلماء الذين ضبطوا عمائمهم على هوى السلاطين ؟!

وأخذت أفكر في حل اللغز..

من أين يبدأ التغيير؟ ومتى وكيف؟

فخلف كل حصن محتل ضمير غائب وأخ أشعل النار في خيمة أخيه لينجو وأنّى له ذلك!!

ووسط ذهولي وحزني ومع كل ما حدث من خيانات.. إلا أن الغيمة السوداء كانت محمّلة بالكثير من المطر المنتظر..

فهاهي بغداد تخرج عن بكرة أبيها تطالب الخليفة العباسي المستظهر بالله أن يخرج لقتال الصليبيين..

فقد نجح مجموعة من تجّار حلب وفقهائها في الهروب من حلب

ومن سيطرة رضوان تتش، ووصلوا للخليفة العباسي يشكون له حالهم تحت الاحتلال الصليبي.. لكنهم لم يسمعوا منه سوى وعود وكلمات مؤازرة.. ومضت أيام وأيام والحال على ما هو عليه، ولم يُحرِّك الخليفة ساكنًا!! فخرج فقهاء حلب إلى أهالي بغداد يخبرونهم بما حدث لهم وللبلدات والحصون الإسلامية على يد الصليبيين وقالوا لهم:

«إن موسم قطافكم آت.. سيملؤون سلالهم منكم.. فالقادم هو أنتم يا أهل بغداد..»

ولكي يحدث التغيير.. فالبداية من الشارع.. من الجموع الهادرة.. فالشارع هو الذي يخيط ثوب النصر، والعلماء هم الذين ينسجون القماش ويأخذون المقاسات!!

هكذا قلت عندما رأيت الجموع الهادرة تملأ شوارع بغداد بالتكبير وتدعو لجهاد الصليبيين، وما حدث في بغداد لم يحدث في أي من الحواضر الإسلامية.. ولذلك سبب جليّ.. وهو أن العلماء في بغداد لم تُكمَّم أفواههم، فاستطاعوا أن يبثوا الروح في النفوس الهزيلة كما بث محمد - ﷺ - الحياة في الشياه الهزيلة التي مرّ بها!!

وبلغ السيل الزُّبى.. لدرجة أن صلاة الجمعة لم تقم، وكسر الثوار المنبر وكسروا شبّاك المقصورة التي يجلس فيها الخليفة..

حينها فكّر الخليفة في امتصاص غضب الجموع الثائرة، ووعد بحرب الصليبيين.. وجهَّز جيشًا بقيادة مودود ابن التونتكين..

وهكذا مضى التونتكين كسارية يحمل شارة النصر.. ويسقي البذار التي تشقّ الأرض، وحقق التونتكين انتصارات عدة أثلجت الصدور، وعرف المسلمون أن في وسعهم رغم الدم المسال والمذابح أن يتطهروا من رجس الصليبيين ويتعطروا بمسك دماء الشهداء..

عرفوا أن النصر لا تغزله كفٌّ وحيدة.. وأن في وسع المسلم أن يبث الدم في العروق الجافة وأن يسعف الروح قبل أن تشيخ..

أدرك المسلمون أن في وسعهم أن يمدوا أيديهم في عمق الأرض كصبّارة ليحصلوا على قطرة ماء تبقيهم على قيد الحياة مع أن الماء على مرمى حجر!!

***

وسرعان ما مضت الأيام.. ونفدت الدنانير التي أعطتني إياها أمي واضطررت أن أعمل وأنا الفلاح الذي لا يتقن سوى الفلاحة والزراعة في السوق وهذا أمر لم أعتد عليه؛ فبغداد ليس فيها عمل إلا في الأسواق، فحملت الأثقال وأكلت خرنوب الشوك وورق الخس الذي ينبت بجانب النهر..

وبدأت تصل أخبار انتصارات مودود بن التونكتين..

كان مودود رجلاً تحتشد في قلبه الخيول المغيرة.. يعرف أن طريق النصر ليس طويلاً.. إنه قريب قُرب لؤلؤة تنتظر فارسها ليزيل ستار المحارة!!

لم يكن مودود هو البطل الأوحد الذي حارب الصليبين في ذلك الوقت.. لكنه كان الأول الذي فتح ثغرة في جدار الصمت.. كان الأول الذي أبصر النصر بقلبه غير عابئ بميقاته ولا بمكانه!!

ما كان يعنيه أن يقبض على النصر بيديه بقدر ما كان يعنيه أن ينتمي للفكرة ويعمل للهدف.. كان يعنيه أن يقدم فعلاً نبيلاً ذا قيمة، وأن يكون في صف الحق وليكن بعد ذلك ما يكون..

ولذلك حاصر الرها أكثر من ثلاث مرات، ولم يستطع فتحها، لكن ذلك لم يثنه عن تكرار المحاولة..

كان يرى نفسه شاهقًا عالي الكعب.. وكلما ضاقت عليه الدنيا بما رحبت كان السيف هو الوسع!!

نقر رأس الغافلين فأوقظهم.. أراق كأس الذل.. ولأول مرة عرف المسلمون أن هناك بدائل أخرى غير الركون والهزيمة.. ولأول مرة تذوّق المسلمون لذّة المواجهة، وعرفوا أن خيار المواجهة هو نصر قبل النصر.. وأن يملكوا القرار نصر..

لقد عرف الشارع بفضل مودود أن المواجهة أقلُّ كلفة من العار، وأن النصر ينضج في القلب أولاً قبل أن يلتمع على حدّ السيف!!

كانت سماء بغداد تزدان بالنجوم في تلك الليلة التي وصلت فيها أخبار انتصارات ابن التونتكين في معركة الصنبرة قرب بحيرة طبريا.. لقد كانت هذه هي المعركة الأولى التي ينتصر فيها المسلمون على الصليبين.. لقد قتلوا أكثر من ألفي فارس صليبي، وغنموا الكثير من الغنائم.. ولأول مرة كنت أسمع باسم عماد الدين زنكي ملازمًا لاسم ابن التونكتين.. حيث راقت بطولاته للناس وصارت سيرته تتصدّر الأمسيات..

«من لم يجد في قلبه زاجر فهو خراب»
أبو مدين الغوث

إنها الصحراء التي تكشف المجازات.. تدنو منها فتدرك سر الحياة وسر الموت.. تشعر أنك عارٍ من أسلحتك.. إنها الصحراء التي تربّي على الصبر.. فمن يصبر على الصحراء يستطيع أن يصبر على آلام الحرية، ومن يعش في الصحراء لا يطيق القيد ولا العبودية؛ فالصحراء تعلمك أن تكون حراً.. صمتها يعلمك أن ترفع صوتك.. واتساعها يعلمك أن الأرض قد تضيق عليك في لحظة.. فلا يغرّنّك اتساعها فقد يكون التهلكة!

بعد سنوات طويلة من وصولي إلى تلمسان.. لا أستحضر الصحراء ولا لحظة خروجي من بغداد.. لا أتذكر شيئًا في بغداد.. لا أتذكر نهرها ولا جوامعها ولا خطواتي المتعثرة وأنا أخرج منها ولا عمري الذي شارف على الخمسين وأنا لم أتزوج بعد.. بل أستحضر لحظة وداعي للشيخ الجيلاني !!

خرجت من بغداد ولم ألتفت للوراء.. ولولا المهمّة التي ألقاها شيخي على عاتقي ما خرجت من بغداد أبدا!!

تحركت القافلة من بغداد، وكان ذلك أواخر الصيف.. وكان عليّ الوصول إلى دمشق وقطع الطريق على بغلتي في ثلاثين يومًا حتى ألحق بالحجّاج المغاربة العائدين إلى بلادهم..

خرجت من بغداد وصار النوم يجافيني.. صارت روحي خواء، ولم يعد يملأ أذني سوى صوت شيخي.. أراه في كل التفاتة.. أسمع صوته وهو يردِّد وصاياه على مسمعي.. أسمعه يرتل قوله تعالى ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾

يرفع يديه ويدعو:

«حنانيك بهذا القلب يارب»

ثم يقترب مني قائلاً:

«يا بني.. هذا القلب أمره عجيب.. في لحظة يكون مؤمنًا مطمئنًا وفي أخرى يصبح ماردًا.. يطاوعك مرة وألف مرة يعاند.. هو مضغة قد لا تقيم له وزنًا.. غير أنه القائد.. هو الذي يقود كل جوارحك..

في قلبك.. كل يوم تحدث معركة بين الخير والشر.. فشدّ أشرعتك جيدًا.. فأنت في مدّ وجزر.. قلبك هو الذي في المضمار.. هو من يكابد ويجاهد..

قلبك بين إصبعين من أصابع الرحمن.. والتقلب قدَر القلب يا بني.. فاحذر الفخاخ التي تُنصب.. فلا ركيزة للقلب إلا أن يؤول للرحمن.. فإن انتصر القلب وجال بين ركوع وسجود فقد عرفت عنوان الوصول»

وكانت هذه الوصية التاسعة التي أسمعها في حياتي..

كانت كلمات شيخي وصوته أنيسي في رحلتي.. فقد قلّ طعامي وكلامي، وصرت أجنح للصمت كثيرًا وزادت ساعات خلوتي وعزلتي ولكن بلا طائل.. كنت لا أتحدث مع أحد في القافلة.. صامتًا ذاهلاً!!

وكانت الأيام والليالي تمرّ عليّ دبقة وثقيلة، وكلما توقفت القافلة في محطة ما.. كنت أتساءل:

«هل كان رحيلي صوابًا؟»

وما كان يهوّن عليّ إلا ما ينتظرني في بلادي من مهمّات كلفني بها شيخي..

أسترجع ما قاله لي:

«اذهب لتُشعل فتيل النفوس وتهيئها لقتال الصليبيين.. فتح بيت المقدس قد اقترب ونحن بحاجة لسيوف إخوتنا المغاربة.. النفوس يا بني بحاجة إلى من يعينها ويجلو عنها الغبار ويكسر القشرة القاسية التي تكلّست عليها بالغفلة.. كفاحك مع النفوس صعب وسهل في آن واحد.. فإن لانت لك وصلت لأشهى الثمار.. والنفوس على الفطرة.. تأنس بالإيمان.. فإن انشغل الدعاة عنها تمسكت بحبال الأرض، وقطعت حبالها مع السماء!

القدس تنتظركم يا بني..

من يؤنس وحشة الأقصى ؟

من يجبر زيتونة جذعها انكسرا؟

من يرقي حال أمتنا.. ويفك خيط النفاثات في العقد..

من يغطّي جرحًا انكشفا؟

ليس للقدس إلا أنتم يا بني..

باب النصر لا يُفتح إلا من الداخل.. فاشتغل على الدواخل يا بني.. ولا تلتفت للقشور القاسية»

***

ورويدًا رويدًا توطدت علاقتي برفاق السفر.. أتقاسم معهم الزمان والمكان والرواحل والطعام والشراب والحكايات لأسابيع قادمة..

نتشارك التفاصيل فنغدو كعائلة واحدة وبيت واحد.. تشع

حكاياتنا وتنكشف الخفايا وتظهر معادن الرجال.. تشتعل الخلافات في لحظة.. ثم تخفت وتتوارى.. تتوارد الهموم.. نصلي معًا.. ندعو ونؤمن معًا.. نأكل ونشرب معًا.. ونواجه ذات المخاطر والأفراح معًا!!

هذه القافلة كانت شاهدة على قصة صاحبنا الرجل الكردي (أبا الجيش) الذي ترك بلاده ونوى الإقامة في دمشق ولذلك قصة:

فقد كانت القافلة في كل ليلة تريح جمالها وتستريح.. توقد النار والحكايات.. وكل منا يحكي ما في جعبته.. وبعد كل ليلة كان يختم حديثه «الله الله يا رفول.. ما رضيت الضيم والقيود»

وكان كل من في القافلة يستغرب تكراره لهذه الجملة!!

وذات ليلة تجرّأت وسألته.. ومن رفول هذه؟ وما قصتها؟

قال أبو الجيش:

إنها ابنتي.. رفع الله درجاتها في علّيين.. وجمعني بها.. إنه قادر مجيب..

«رفول سباها الفرنج يا بني.. أخذوها أمام عيني.. كنتُ مثقلاً بالجراح أكاد ألفظ أنفاسي الأخيرة، ولم أستطع إنقاذها من براثن الصليبيين ولم أكن أعرف مصيرها ولا بأي أرض صارت ولا لأي حال آلت! ومنذ ذلك اليوم الذي فقدتها فيه.. لم أكتحل بنوم، ولم يرقأ لي دمع.. أسافر من مكان إلى مكان.. أدخل من بلدة وأخرج من أخرى.. أتتبّع أخبارها علّي أجدها وأفتديها، ولكن بلا جدوى.. وبعد شهور طويلة بردّ الله قلبي وسكّن وجعي..

صرخت:

«هل وجدتها وافتديتها؟»

قال أبو الجيش وهو ساهم دامع:

«ذات يوم وكنت عائدًا من إحدى القرى المجاورة خالي اليدين.. مجروح الفؤاد.. رأيتُ حبة القلب..

كانت مستلقية بأمان على صفحة النهر وقد انتفخ جسدها.. كان وجهها هادئًا وادعًا مطمئنًا صامتًا على غير عادتها.. أخذت أسبح صوبها وأصرخ ليساعدني أحدهم وينقذها.. لقد كانت طافية فوق الماء بلا حراك.. حملتها بين يديَّ ووصلت الشاطئ واجتمع الصيادون حولي..

قال أحدهم:

لقد رأيتها قبل أيام تلقي بنفسها من على فرس الصليبي.. لم نستطع إنقاذها وبحثنا عنها فلم نجدها!!»

ضاق صدري واختنق السامعون بالبكاء.. فيومًا بعد يوم تزداد الأمور تعقيدًا ويتوغل الصليبيون أكثر في بلادنا.. وكلما لاحت في الأفق بشرى اختنقت، وكلما سطع ضوء أعتم!

أخذ رجال القافلة يتداولون قصصًا كثيرة عن أفعال الصليبيين تارة والحشاشين تارة أخرى !! حكاية تفتح باب حكاية أخرى فيزداد الليل وحشة..

وكان أشدّ الأمور غرابة ما تناقلته الألسن عن الحشاشين وجرائمهم واغتيالاتهم والفزع الذي بثوه.. فمن قائل بأنهم والصليبيين وجهان لعملة واحدة.. ومن قائل بأنهم متواطئون مع الصليبيين، والدليل أنه لم يحدث أن قتلوا صليبيًا واحدًا أو أسروه!!

وآخر يعدّد الاغتيالات التي قاموا بها.. منذ اغتيالهم لنظام الملك السلجوقي ومودود ابن التونكتين وآخرها اغتيالهم لسنقر البرسقي إذ هجم عليه اثنا عشر باطنيّاً دفعة واحدة وما تركوا في جسده شبرًا إلا وطعنوه فيه..

وعلت الأصوات وتفرعت الحكايات.. وبينما هم كذلك.. وإذ برجل وافر الطول.. ذي بشرة سمراء.. تحسبه هادئًا لكن إن تحدث بدا صوته جهوريًا عاليًا.. بقي صامتًا لم يشارك الرجال حديثهم ولا أبدى رأيًا في أول الأمر.. بل كان على وشك الانسحاب من الجلسة كلها وإذ به يقف فجأة في الجمع ويحكي بينما النار تزداد اشتعالاً وتتوقد فتظهر ملامحه المنحوتة بدقة.. وبينما كانت الكلمات تختنق بين شفتيه وبدت نظراته ذاهلة.. تعثر في كلماته.. ثم قال:

«أنا كنت من الحشاشين وتاب الله عليّ!!»

تجمع رجال القافلة حوله وأخذوا يمطرونه بوابل من الأسئلة.. وهو بالكاد يمسك دموعه ثم قال:

«أسروني وأنا طفل صغير.. كنت أرى صورة أمي وأبي غباشًا وأنا نائم.. ثم رويدًا رويدًا اختفت الصورة تمامًا.. وصرت لا أعرف أبًا لي إلا الحسن الصباح.. أطيعه طاعة عمياء.. ألتزم بكل أوامره.. درّبني على كل أنواع الأسلحة.. وجعلني بارعًا في استخدام الخناجر.. فكنت أستخدم أكثر من خنجر في وقت واحد !!

وكان دومًا في جيبي علبة سمٍّ صغيرة!!

نظر الرجال إلى وجهه مندهشين مستفهمين.. تابع كلامه قائلاً:

«كان هذا السمّ هو المنقذ إن وقعت أسيرًا في يد المسلمين.. أستخدمه وأقتل نفسي فورًا حتى لا أبوح ولو بسر من أسرارهم.. وكدت مرة أن أفعل ذلك كما فعله الكثيرون من رفاقي الفدائيين الذين أضاعوا دنياهم وآخرتهم لولا أن ساق الله لي أحدهم في أحد الاغتيالات التي كنت أنوي القيام بها.. فأمسك بخناجري.. وكشف الغمامة عن عيني.. فقد عرفني من علامة على رقبتي تميز أبناء

قبيلتي.. وعرفت بأنني طفل مخطوف جرَّعوه الحشيش مرة تلو الأخرى حتى صار عبدًا لهم!!

أغمض الرجل عينيه لبرهة.. وتصبب العرق من جسده وكأنه أصابته حمى.. وأكمل:

«الباطنيون يقولون بأن لكل آية تفسيرين.. أحدهما ظاهر وهو الذي يعرفه العامة وتفسير باطني لا يعرفه إلا الباطني الذي كشف الله له الحجب!!

كان قائدهم حسن الصباح يحسن اختيار أتباعه.. إما يختطفهم وهم صغار ويربيهم على يديه.. أو قد ينتقي السذَّج قليلي الذكاء ومن تنطلي عليهم الحيل والفقراء والضعفاء.. وعندما ينجح في استمالتهم يبدأ بسقيهم الحشيش المسكر المخدِّر.. ويدخلهم إلى جنات معروشات.. حولها أنهار صناعية صغيرة.. حفرها وزيَّنها وملأ الجنات بالفتيات الصغيرات الجميلات فائقات الحسن.. اللواتي يتم انتقاؤهن أيضًا..

تُرتكب الفواحش.. بكل أنواعها.. لا يميزون بين أم وأخت وزوجة.. كل النساء مباحات!!

عندما يصحو أحدنا من المسكر يُطلب منه القيام بعمل يرعب به الناس.. فإن قام بالعمل عاد إلى جنته الموعودة.. ثم يأتي الأمر الصارم بالقيام بعملية انتحارية والتي يكون جزاؤها أن يدخل جنة الصباح الكاذبة ولا يخرج منها أبدًا!!»

ننام ونصحو.. وتختلط الحكايات بعضها ببعض.. بعض الحكايات تعبر ولا يلاحظها أحد، وبعضها ينغرس في الذاكرة ويترك ندوبًا في الروح لا تمحوه السنون.. ومع ارتفاع أصوات أقدام رجال

القافلة المختلطة بأقدام الدواب تتعالى حكاية ترويها إحدى نساء القافلة عن الأسيرة الإفرنجية المليحة التي وقعت في أسر صاحب قلعة جعبر..

قالت المرأة تصف الأسيرة الإفرنجية:

«كانت وافرة الطول والمَلاحة.. ذات جبين عريض لامع.. وبشرة نقية كأنها الفضة المسكوبة وشعر أصفر يتدفق كشلال.. عندما رآها صاحب القلعة قال لقهرمانة داره:

خذيها وأصلحي شأنها وكسوتها ومن شدة إعجابه بها اتخذها لنفسه.. فولدت له ولدًا، وكبر الولد وصار صاحب القلعة خلفًا لأبيه، وصارت أم الولد صاحبة الأمر والنهي والكلمة الأولى في القلعة.. والجارية أصبحت تصول وتجول.. تحكم وترسم.. ترفع وتُخفض.. ولكنهم ملاعين لا يؤتمن لهم..»

سألتها النساء ولماذا تقولين ذلك عنها؟

قال:

«لقد فعلت هذه المرأة ما لم يكن في الحسبان..»

صاحت النسوة:

وماذا فعلت؟

قالت الجعبرية:

«لقد أخذت حبلاً سميكًا وتدلّت من أسوار القلعة ولاذت بالفرار.. تاركة وراءها ابنها حاكم قلعة جعبر وأحفادها ومالها وعزّها وجاهها.. تركت كل ذلك وفرّت لقومها الفرنجة»

صرخت النسوة.. وهل يعقل ذلك؟

«نعم.. تركت كل ذلك وواعدت إسكافيًا من قومها وتزوجته وابنها صاحب قلعة جعبر!!

إبراهيم التلمساني

«العبد ييأس من الفرج إلا من مولاه»
أبو مدين الغوث

السجن لا يقتل مرة واحدة!!

إنه يأخذ في كل يوم نُتفة منك.. لتجد نفسك بعده ميتًا وأنت لا تدري؛ لذلك عليك أن تقاتل في كل لحظة حتى تبقى حزمة النور متقدة في قلبك..

في السجن عليك أن تقاتل المكان والزمان.. فالزمن في السجن لا يتقدم ولا يتأخر.. إنه يقف عند لحظة واحدة.. فعليك أن تصنع زمنك الخاص بك.. وأن تصنع مكانًا غير القضبان تلوّنه بما تشاء..

وخرجت أنا ويونس الإشبيلي من سجن عكا.. ووصلنا إلى تلمسان..

وما أن وصلنا تلمسان حتى فاحت رائحة الفرح في الأرجاء.. الفرح بخروجي سالمًا من أسر الصليبيين والفرح باقتراب موعد زواج أختي زينب من رفيقي الشيخ يونس الإشبيلي..

لم يكن من عادة أهالي تلمسان تزويج بناتهم للغرباء.. فعندما أخبرت أمي عن العريس القادم.. استغربت وقالت بما يشبه الرفض:

«ولماذا لا يتزوج رفيقك من فاس موطن شبابه وصباه.. أو من إشبيلية مسقط رأسه ؟!!

ولماذا تأخر في الزواج كل ذلك الوقت؟ ألم يجد عروسًا في بغداد؟ ثم إن هذا الإشبيلي بلا أهل ولا وطن.. كيف نزوجه ابنتنا صاحبة الحسب والنسب؟

قلت لأمي يومها:

«يا أمي نحن من اخترناه وارتضيناه لابنتنا.. وسنُّه لا يعيبه، ولن أجد لقرّة عيني زينب زوجًا خيرًا من يونس الإشبيلي، ولو عشت عمرًا فوق عمري لن أكافئه على معروفه معي.. وما عرضت عليه الزواج من أختي زينب مجازاة على معروفه أو سدادًا لدين له في رقبتي.. ولكن لأنه سيد الرجال..»

تمرّ على مخيلتي مقاطع وصور ومشاهد من سنوات عشتها أسيرًا في سجون الصليبيين في عكا.. تجتمع الصور لتكوّن عمرًا بأكمله قضيته في القيود والأغلال..

كنتُ قد ذهبت مع أهل بلدتي حاجًا إلى بيت الله الحرام عندما استولى الصليبيون على سفينتنا وأسروا كل من فيها، وكان عددنا أربعمئة ما بين رجال ونساء وأطفال..

كان الشيء الوحيد الذي يعرفه أهلي أنني خرجت من زنازين الصليبيين.. لكن الشيء الذي لم يكونوا يعرفونه هو الندوب والآثار التي تركها السجن في روحي وذاكرتي.. والتي يصعب أن تُمحى بأي ممحاة مهما عظمت..

أحيانًا كثيرة كانت أمي تدخل عليّ ليلاً لأن صوتي قد علا بالبكاء.. فالكوابيس ما زالت تداهمني.. وأحيانًا كثيرة كنت لا أستطيع النوم..

ارتاعت أمي عندما سمعت صوت نحيبي في ليلة من الليالي.. فقلت لها:

«وكيف أنام ومازالت بعض الصور تلازمني كالأرجوحة.. تأتي وتروح ولكنها تابثة في أرض الذاكرة.. أرى دومًا رفاقي الذين كانوا أهدافًا لسهام الرماة الصليبيين.. لقد كان الرماة يتمرَّنون على رمي السهام على رفاقي وهم أحياء.. في كل يوم يأخذون ثلاثة منا.. نموت معهم ألف مرة في كل رمية سهم.. كنت أفقد جزءًا من عقلي وروحي مع كل سهم يقع في قلب أو كبد أسير..

كل سهم كان يقع في قلبي أولاً.. يشطره شطرين..

كانت تختلط أصواتهم ونتف لحمهم بصراخنا المكتوم وضحكات الفرنجة الصاخبين الذين يتلذّذون باللحم المتطاير والدم المتناثر..

أحدهم يرمي السهم والآخرون يصفقون ويضحكون ويشربون حدَّ الثمالة.. وهكذا يتناوب الرماة على الضحية حتى لا يبقى في جسده مكان إلا وفيه رمية سهم.. وحين تتعاظم الجراح فلا تُبقي مكانًا لصوت يخرج أو دمعة تسيل.. تسكت الضحية تمامًا ولا نعود نسمع لها صوتًا!

أما أنا فكان نصيبي السجن في بئر.. لا يخرجونني إلا لنقل الأحجار وتكسيرها.. ثم يعيدونني إلى البئر وقد أغمضوا عينيّ.. إلى أن ساق الله لي يونس الإشبيلي.. الذي سمع صوتي وأنا أتلو القرآن وظل يتتبع الصوت حتى استدلّ على مكاني..

اقترب من البئر.. وسألني عن اسمي وموطني.. فقلت له:

«أنا إبراهيم التلمساني من تلمسان..»

أصرّ أن يفتديني ولم يكن يملك مالاً وكانت سفينته توشك على

الإبحار، ولكن رغم ذلك اختار أن يبقى جانبي حتى ولو تأخر في الرجوع إلى بلاده..

واستطاع أن يتنكّر، وبقي في عكا سبعة أشهر كاملة.. يحفر بيديه سردابًا حتى وصل إلى مكاني واستخرجني وكسر قيدي.. وهرَّبني خلال الليل، وساعدنا سكان ضياع عكا فقد كانوا كلهم مسلمين.. وأخفونا عندهم لأسابيع إلى أن تدبرنا أمرنا والتحقنا بأول سفينة..

في تلك الرحلة توثقت علاقتي بيونس الإشبيلي.. رأيت طيب معشره ورجاحة عقله وعفّة لسانه وقلبه وجوارحه.. ورجوته ألا يعود إلى فاس.. لحاجة في نفس يعقوب ألا وهي مصاهرتي له.. وأي شرف لي أن أصاهر عالمًا جليلاً مثله..»

***

ذهبت لصديقي يونس وأخبرته بموافقة أمي وأبي على تزويج أختي له.. ولا أدري ما الذي حصل ليونس عندما سمع الخبر..

لقد رأيته حزينًا.. مرتبكًا.. مشتتًا.. وأخذت أفكر في سبب ذلك..

أأكون قد تسرعت وعرضت عليه أختي وهو غير راغب بها؟!

وأخذت أتقلّب في فراشي الليل بطوله.. لا أجد جوابًا على سؤالي.. فردّة فعل يونس غير مفهومة ولا متوقعة.. وأقسمت في داخلي بألا يطلع الصباح إلا وأكون قد تقصيت عن الأمر.. فأنا أحبه وأريده أن يبقى في تلمسان حتى ولو لم يتزوج أختي!

ومع شقشقة الفجر خرجت مضطربًا قلقًا إلى المسجد.. فوجدت يونس هناك.. فأخذته جانبًا وقلت له:

«قل لي دون مـواربة ولا خـجل.. هل تريد أخـتي زينب أم أنك عدلت عن رأيك؟»

سكت يونس وهو لا يجرؤ على البوح بما في صدره.. وهو الغريب الوحيد الذي ترك إخوة له في إشبيلية لا يعرف عنهم شيئًا..

قال يونس:

«هذه اللحظة غير مفهومة يا إبراهيم.. يفرح الإنسان ويحزن في آن واحد.. إنني أفتقد أمي وأبي وإخوتي.. أفتقد صديقي وأخي إدريس وأمّه.. ورغم كل تلك السنوات الطويلة الصعبة.. لم أكن ألتفت لما مضى من حياتي.. كانت النهارات كفيلة بإشغالي، ولكن في لحظة الفرح تتجمع كل الأحزان كخيوط حول الحنجرة.. فتحبس الصوت وتنتصر!!

نظرتُ إليه ولم أعرف ما أقول..

تماسك من جـديد.. وسـيطر على ارتجـاف بدنه ورعـشـة قلبـه وأمسكني من كتفي وضمّني بشدة وقال:

لنحدّد موعد العرس!

العرس

«ترك الدنيا للدنيا شر من اخذها»
أبو مدين الغوث

عندما حطت أقدامي في تلمسان لم أكن أنوي الإقامة فيها.. فقد ألحّ عليّ إبراهيم بأن يستضيفني عنده أيامًا معدودات ثم أرتحل بعدها إلى فاس، لاسيما وأن أمَّ صديقي إدريس كانت قد أرسلت لي رسالة مع أحد الحجّاج المغاربة ترجوني أن أعود إلى فاس لتراني قبل أن تموت وترغّبني بالعودة قائلة:

«يا بني لقد حضّرت لك العديد من الفتيات الفاسيات.. صاحبات الخلق والجمال وما عليك إلا أن تأتي وتختار..»

لكن تلمسان أغرتني بالبقاء.. تلمسان التي أسسها يوسف بن تاشفين، والتي تتكوّن كما أخبرني إبراهيم من كلمتين أمازيغيتين الأولى (تلم) أي تجمع، والثانية (سان) أي اثنان.. فقد فتحت تلمسان ذراعيها واسعًا لي ولملمت شتات روحي وأجرت الدم في عروقي وبدل أن أبقى واحدًا لا ظل لي فقد صرت اثنين.. فيا لجمال تلمسان حين تتحول كنايتها إلى تصريح بالحب..

همس لي إبراهيم ونحن نتسلل من عكا هاربين من أيدي الصليبين:

«ما رأيك يا يونس أن تبقى معنا بعض الوقت في تلمسان؟ ننهل من علمك فترة ثم عد إن أردت إلى فاس أو إلى إشبيلية.. لكن عُد ومعك عروسك..»

ولم أكن أعرف مراد إبراهيم ولا إلى ماذا يرنو ويخطط!!

اتّسعت عيناي الضيقتان وفككت يدَيَّ المعقودتين، وانفرجت شفتاي عن ابتسامة جذلى.. ثم أكمل إبراهيم:

«إن الرجل منا بلا امرأة كالخيمة بلا وتد»

صمتُّ برهة ودارت بي الدنيا.. في هذه اللحظة شعرتُ بأني كبرت.. كبُرت لدرجة أنني لن أجد عروسًا تقبل بي وعدت إلى الوراء.. إلى حياتي التي كانت تشبه العيش في صحراء قاحلة لا ماء فيها ولا غزال!!

فأنا رجل لم أحظَ بالنساء.. وكم كنت أغبط من تدور حوله النساء.. كنتُ أتخيَّل نفسي دومًا مع أمٍّ أو أخت أو جدّة.. خالة أو عمة.. لكنني لم أحظَ بأي واحدة منهن..

ولذلك كنت أتوقف كثيرًا عند قصة سيدنا موسى عليه السلام.. أتأمل ذلك الفتى الذي استغنى بالنساء عن الرجال.. فلم يرد ذكر رجل واحد في حياته إلا في مراحل متأخّرة.. فقد حظي بأمٍّ كانت دموعها زمزم التي فاضت حول وليدها وحوّطته بالبركات.. وقلبها المثقوب بالوجع كان المرفأ الذي ربط الله عنده الوليد فعاد لأمه وقرّت عينها..

وتلك الأخت المعجونة بالحب، وعرفت كيف تخبّئ لهفتها وتلبس ثوب الناصحة التي تدلُّهم على مرضعة.. تلك الذكية اللّمّاحة حافظة الأسرار.. كيف استطاعت أن تحتملها أقدامها وهي تلاحق الصندوق في اليمّ؟!

كيف استطاعت أن تكوّر خوفها وهلعها وتلقيه في البحر فينطفئ لهيبها ويصبح قلبها بردًا وسلامًا؟!!

النساء هنّ اللواتي غزلن لموسى الورد قلائد.. فحياة الرجل بلا نساء لا تتفتح فيها المعاني ولا المشاعر..

كل امرأة كانت له نافذة على العبير.. يتسابقن لصناعة الرجولة..

وعرفتُ أن الرجل تصنعه نساؤه الحانيات العاشقات اللواتي يلوّن حياته بأبهى الألوان..!!

لم أحظَ ولا بامرأة!!

النساء دومًا في حياتي كنّ عابرات.. ولكنّ الله جمع لي النساء في زينب.. فهي أمي التي لم أرَ، وأختي التي لم تولد، وزوجتي ومعشوقتي، وقصيدتي التي طال وقت كتابتها!!

ومنذ تلك اللحظة التي تمت فيها الموافقة.. لم يغمض لي جفن.. أتساءل وأفكّر ماذا يليق بها يا ترى؟

أنزل إلى أسواق تلمسان.. أجوبها من أوّلها لآخرها.. أتلمّس قطع القماش الحريرية والكتّانية ذات الألوان المختلفة.. ثم أصفها صفًا واحدًا لأقارن بينها ثم أتركها متحيرًا..

أمسك بالمناديل الحريرية الصغيرة التي يُغطّى بها الرأس.. أتأمل الأحذية المطرّزة بدقّة، والقباقب الزاهية الألوان.. أعرّج على العطور والبخور والحناء.. الفضة.. المراوح.. أزداد حيرة.. ثم أحسم أمري وأشتري لها كل ما رأيت!

عرفت أن من عادة أهالي تلمسان أنهم يقدّمون الأغطية والفُرش المطرزة والموشّاة حواشيها بالحرير والمخدّات المطرّزة والوسائد الصوفية لبناتهم.. فقلت لصديقي إبراهيم

«أنا أتكفل بكل شيء»

وسار الموكب الذاهب لأخذ العروس، وكانت المشاعل والدفوف والطبول تتقدم الموكب.. عندما دخلت على عروسي التي وضعت على مكان عالٍ فيما يشبه المنصة.. كانت بهيَّة كبحيرة صافية لم يخدشها موج!

كانت خدودها مزيّنة.. وأيديها وأقدامها مخضّبة بالحنّاء والرسومات الهندسية تعلو ما بين حاجبيها وتحت ذقنها..

في هذه اللحظة شعرتُ أنني لم أذق مرّاً في حياتي.. كان قلبي يلهج بالشكر.. وتناوبتني مشاعر مختلطة.. فقد مرّت حياتي أمامي كلمح البصر.. استحضرت هزائمي كلها وانتصاراتي.. وشعرت أن أجمل الانتصارات أن تحظى بامرأة تعينك على الصمود وإكمال الطريق.. ترفعك حين تسقط.. تعانقك كي يهدأ موجك.. تكون سيفك عندما تفقد ترسك!! وهكذا كانت زينب.. لملمت عمري الذي تناثر هنا وهناك، وسكبته بين يدي زينب التي كانت هبة الله لي في منتصف العمر!

وأضحى العرس عرسين.. فقد طرب الناس وتمايلوا ليس على وقع الدفوف والطبول فحسب.. بل نبض خافقهم وطربوا لأخبار انتصارات عماد الدين زنكي.. فقد وصلت أنباء نجاح خطّته وحيلته في الإيقاع بين الإمبراطورية البيزنطية والصليبيين، لاسيما وأن بينهم خلافًا مذهبيّاً كأرثذوكس وكاثوليك..

فأرسل عماد الدين زنكي رسوله إلى إمبراطور بيزنطة يخوّفه من نقض الصليبيين لعهودهم معه وأنهم يتربصون به.. ولن ينصروه في حال صارت مواجهة أو حرب!!

وذهب الرسول إلى الصليبيين ليوقع بينهم وبين إمبراطور بيزنطة وقال له:

«إن ملكوا في الشام حصنا واحدًا ملكوا بلادكم جميعًا»!!

ولم يمضِ وقت طويل حتى انسحب إمبراطور بيزنطة من الشام وترك المجانيق والأسلحة في الأرض فغنمها جيش الشام وحرّروا أسراهم، وعلا صيت عماد الدين زنكي، وارتفعت الأكفُّ ولهجت الألسن بالدعوات لعماد الدين وجيشه..

وكانت الأخبار تصل تباعًا إلى بلادنا المغربية فيبيت الناس ويصبحون على هذه الأخبار التي تحوّل أيامهم إلى صباحات مشرقة.. وحيثما كانت ترد أخبار عماد الدين زنكي وانتصاراته كان ثمّة عرس!

فعندما سيطر عماد الدين زنكي على الموصل وحلب وحرّان وحماة.. كانت تُدقّ الطبول وتُقرع الدفوف احتفالاً بذلك.. وعندما سيطر على بعض مناطق الأكراد، ووصل إلى مشارف أنطاكية، كان يخرج الناس في الطرقات ويهتفون باسمه..

لقد فهم عماد الدين زنكي معادلة النصر.. ورفع معنويات الأمّة المكبّلة بالخوف.. وتذوّقت الشعوب معه طعم الكرامة والعزّة بعدما اعتادت على الذل والهزيمة ردحًا من الزمن وتذوُّق الشعوب للكرامة جعلهم لا يتهيَّبون تبعات المعركة مهما كانت.. فمن يذق طعم النصر والكرامة أنّى له أن يقبل بغيرهما بدلاً !!

جاء عماد الدين زنكي حاملاً شعلة الجهاد.. معبِّئًا الفراغ الطويل.. ملقيًا الندى على جفاف الطريق..

عماد الدين لم يحقق انتصارات فحسب.. ولم يجنِ مكاسب فقط..

لقد قدح شرر الجهاد في النفوس.. وأحدث تحوّلاً في الفكر.. وعمّق الإيمان في النفوس.. وربّى الجيل على معاني التضحية والنبل والإيثار..

لقد كان عماد الدين قنديلاً وسط الغفلة.. وحضنا للمقهورين والمظلومين.. لم يهزم الصليبيين فقط.. بل هزم الخوف والذلة ومعاني الاستسلام والركون..

كان هناك ما هو أجمل من لحظة النصر بكل كثافة روعتها.. الأجمل هو تلك المعاني التي ترسخت عند الشعوب.. لقد أدركت الشعوب الإسلامية أن حربها.. هي حرب إرادة وإيمان.. وما عدا ذلك فهو محض هراء!!

لقد عرف عماد الدين زنكي سرَّ النصر وخلطته العجيبة.. وعرف أن المعركة لا تنتهي أبدًا مع الباطل..

أولويته كانت تغيير الفكر والقيم الخسيسة التي سادت ذات يوم!!

كان يعنيه في الزَّهر.. فكرته ورائحته لا شكله!!

لم يكن بطلاً فقط.. لم يكن رجلاً يهوى الشهادة ويعشق قتال الصليبيين فقط.. بل كان مخطِّطًا بارعًا.. لا يخطو خطوة إلا بعد تمحيص ودراسة.. لا يتعامل مع الصليبيين بطريقة الدفاع فقط! يستشير الفقهاء والعلماء.. وينثر اليقين في النفوس.. يختصر المسافات بدعوة وتذلُّل وانكسار بباب الله..

لم يكن يشغله التناحر حول التفاصيل والتوقُّف عند الخلافات الصغيرة التي تعيق والتي يمكن أن تذوي كفقّاعة وحدها.. كان يشغله شيء واحد فقط ألا وهو مشروعه الجهادي التحرُّري فقط..

فلم يستغرق في جدالات وعراك هنا وهناك.. بل كان يستثمر قوّته في عراك الصليبيين وحدهم!!

«أغنى الأغنياء من أبدله الحق حقيقة من حقائقه»

أبو مدين الغوث

رُبّ حجر فاز بما لم تفز به السيوف والحناجر؛ فالحجر في كفّ المقاوم سيف، والسيف في كف الرُّعاة عصا.. وسلاح المقاوم في قلبه قبل أن يكون في كفه!

والانتصارات لا تصنعها السيوف فقط.. بل تصنعها العقول.. وقبل أن تحمل السيف لابد أن تحمل شمعة تنير عقلك!

هكذا قلت لإبراهيم بعدما فرغت من موعظتي التي ألقيها في مجلسي اليومي في مسجد تلمسان..

كنتُ أقضي يومي في الوعظ والقراءة ومراجعة الكتب للبحث عن حل لقضية شائكة.. أغوص بين السطور لأصل إلى نتيجة وأتحقق من معلومة.. وصرت تلمسانيًا.. يتوافد العامة والخاصة على مجلسي.. وصار يحضر مجلسي رجالات تلمسان وعلماؤها وفقهاؤها وأدباؤها.. والنُسّاخ والحجاج المغاربة والأندلسين.. وكلما حضر أندلسيٌّ شبَّت نار الحنين في قلبي تكوي أضلعي.. أسألهم عن إخوتي ولا أحد يجيب!

أتلو قول الله تعالى ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾

أتأمل الآية ما شاء الله لي أن أتأمل.. أتأمل وبريشة مغموسة بالحب كيف يرسم لنا القرآن خريطة الأخوّة الأبهى.. يعيد لنا تشكيل ما يخبو ويبهت.. يرسم لنا يدًا.. تشتد وتقوى بكلمة واحدة «بِأَخِيكَ»

فقوة اليد بالعضد.. فالأخ هو العضد هو السياج..

فأي سر يهمس لنا به القرآن؟

إنه يهمس لنا بسرٍّ القوة والغلبة والعزة والسلطان..

﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾

كل الأيدي وإن مُدَّت لك لا تراها.. إن لم تكن يد أخيك معك!

وكل الأكفِّ رماح.. وكفُّ أخيك هي من ترفعك!

وبعض المعارك الانتصار فيها.. أن يكون جيشك أخاك!

وبعض الهزائم سرُّها.. أن يكون قوسك خاليًا من السهام!

وبعض الأعداء يكفيك أمرهم.. حصن وملجأ عنوانه «أخ»

وعلى وسعها تضيق الدنيا.. إن لم تحظَ بأخ !!

هذه المشاعر لا يمكن أن يدركها إلا من حُرم من نعمة الأخوَّة!!

أحببتُ أهل تلمسان وأحبوني.. أحسنوا الظن بي لدرجة أنهم إذا أصابهم كرب أو مكروه هرعوا إليّ يحملون أوراقًا صغيرة لأكتب لهم بعض الأدعية.. كنت أكتب لهم وأدعو.. ويتراقص قلبي فرحًا وأنا أراهم ينطلقون أمامي ممسكين بتلك الأوراق.

وعندما كثُر الناس في مجلسي وازدحمت الطرقات المؤدية إليه وضاق المكان.. فكَّرت حينها في إقامة مدرسة على غرار المدرسة القادرية التي بناها شيخي عبد القادر الجيلاني والتي توسَّعت

وصار لها فروع في أربعمئة مدينة..

لقد كنت على يقين بأن مصاب الأوطان لا يشفيه إلا الكتب! فالكتب لها القدرة على تحويل الهزائم إلى انتصارات والموت إلى ولادات والرماد البارد إلى جمر مشتعل.. والماء الآسن إلى جارٍ نابض بالحياة..

وأيقنت أن أشدّ المعارك ضراوة هي معارك الفكر والنفس.. فإن نجحنا في تنقية الفكر من الجهل والتعصب والتبعية فقد انتصرنا في جُلّ المعركة..

وما إن أعلنت فكرة بناء المدرسة حتى هبّ أهالي تلمسان لتنفيذها.. فهذا يتبرع بالأرض التي ستقام عليها المدرسة.. وذاك يتبرع بالحجارة.. وهرع البناؤون والنجّارون والحجّارون من كل حدب وصوب.. وجاءت النساء بمصاغها وحليّها ووضعته وقفًا للمدرسة حتى اكتمل بناؤها..

كنتُ أرى وألمس شوق الناس لجهاد الصليبيين ودحرهم عن مقدساتنا.. ولكنني كنت أراهم يشبهون العاصفة التي تغير اتجاهاتها بين لحظة وأخرى.. فلا قرار لهم ولا بوصلة توجههم؛ لذلك كان لابد من إنشاء هذه المدرسة.. ركضتُ صوب زينب أبشرها ببدء بناء المدرسة.. كانت تحمل وليدنا الأول.. أخذته منها.. مسَّدت على رأسه.. قلت لها:

«فلاح واحد لا يكفي ليزرع الورد في أرض خراب يا زينب.. ولا بطل أوحد يعيد للأمَّة مجدها.. فالبطل الأوحد يشبه شطر قصيدة مبتورة لا جرس لها ولا قافية!

وفهمت زينب أن عليها أن تتحمل معي الكثير لنصنع التغيير الذي نرنو إليه.. فكانت تتولى الاهتمام بأولادنا، بينما كنت أتولى أمر صناعة أهالي تلمسان وإعدادهم لمعركة التحرير من الصليبيين..

في أحيان كثيرة كانت زينب تخرج بأولادنا إلى البحر.. تشير لهم إلى الأندلس وتقول:

«ذاك موطن آبائكم وأجدادكم ولابد يومًا أن تعودوا.. ثم تلتفت

إلى الناحية الأخرى.. صوب المشرق وبيت المقدس وتقول:

«القدس لنا.. من ليلة الإسراء إلى يوم القيامة.. وأما من استلذّ بالسقوط في القاع ونصّب الصليبيين أمراء له فماذا تقولون له:

فيرفعون أصواتهم على وتيرة واحدة وبلحن جميل:

«في الطريق إلى التحرير لا يبقى على البراق إلا نبي.. يتساقط المرجفون والمثبِّطون ولا يبقى على ظهر الخيل إلا الأطهار.. ولأنها القدس هيهات تقبل أن يمتطي ظهرها نذل.. وجلّ لها أن تخبر الواشين بموعد النصر»

كنت أسمعها كل يوم تتلو عليهم عشق القدس كما تتلو آي القرآن.. تحدثهم عن سقوطها في أيدي الصليبيين.. كانوا يتحلقون حولها.. مبهورين بحكاياها.. كانت ترسمها لهم برموش العين حتى إذا حانت لحظة الوصل عرفوا الحبيبة وعرفتهم.. ورفّت قلوبهم ومشوا دون تعثر في طريق النصر..

لقد كانت زينب تعمل لهدف واحد ألا وهو تنقية البذار ليصلب عود السنابل وتستطيع مواجهة الخطر الصليبي والباطني الرافضي على حد سواء..

وأما الخبر الذي أشعل قلب زينب وجعل الحنين يشبُّ في قلبها وقلوب أولادي فهو صناعة نور الدين زنكي منبرًا للمسجد الأقصى.. فقد أوحى لها هذا الخبر بأن استرداد بيت المقدس قاب قوسين أو أدنى وأن النصر دنى وتدلى وصار الأولاد يتحدثون عن ذلك المنبر ويتساءلون ويجيبون من تلقاء أنفسهم...

يا ترى من أي خشب صنعه؟

أمن خشب الأرز أم غيره؟

بماذا رصعه؟

كم عدد درجاته وشرفاته؟

ما هو شكل بوابته؟

لقد كانت لهفتهم تسبق أقدامهم.. وقلوبهم أسرع من عيونهم.. وفاضت دموعهم شوقًا..

لقد كانوا يتخيلون المنبر أمامهم.. يطالعونه وكأنه حقيقة لا مراء فيها.. خاصة بعدما صنعت لهم أمهم منبرًا مصغرًا.. لدرجة أنهم كانوا يصطفّون بجانب بعضهم مرهفين سمعهم لأخيهم الكبير وهو يخطب وقد أسموه خطيب المسجد الأقصى!!

كانت ضحكاتهم تمتزج بنقر الدفّ والأهازيج التي تنشدها أمهم احتفالاً بالنصر القادم..

لقد تذوق أولادي النصر والعزة والكرامة بعد سماعهم لخبر صناعة المنبر.. لقد شعروا كما شعر كل الناس بأن النصر هبَّت نسائمه!!

يصعدون المنبر الخشبي الذي صُنع من أرز لبنان.. يتلمسون قوسه وشرفاته الخشبية المرصَّعة بالعاج والأبنوس.. وكأنه أمامهم!!

لقد أحالت زينب بيتنا إلى جنّة وارفة الظلال.. فأول ما يستقبلني حينما أعود هو رائحة الياسمين المختلطة برائحة شجر البرتقال والليمون.. وحرصت على زراعة التين والزيتون في بيتنا.. فقد كانت تقول لأولادنا إنهما شجرتان مباركتان مقدستان ولذلك زرعتهما في بيتنا لتذكر أولادنا ببيت المقدس!

***

جاءني إبراهيم في يوم عاتبًا.. يلومني لأنني لم أدعُ التلمسانيين إلى الجهاد وأحفِّزهم عليه!

قلت له وبتصميم واضح وبنبرة حازمة:

«لن أدعهم إلى الجهاد؛ لأن ذلك لن يكون ذا فائدة الآن.. فالسوس ينخر من الداخل، والجهاد هو ذروة سنام الإسلام ويحتاج إلى بناء.. والتغيير الذي يبدأ من الأعلى لن ينجح.. التغيير يبدأ من القاعدة.. من الداخل.. يبدأ من النفس.. فإن لم يبدأ من هناك ستذهب كل الجهود سدى.. كما تذهب موجة إلى شاطئ مهجور.. لن يحفل بها أحد..

فلا بد من غربلة الأفكار والمعتقدات.. لابد أن يكون الولاء للأمة والفكرة ولمشروع التحرير من براثن الصليبين..

وصار يداوم على حضور مجلسي جنود البحرية الذين يسارعون في تلبية نداء نور الدين زنكي ومن قبله عماد الدين زنكي.. فقد كان نور الدين زنكي يثق بمهارة البحرية المغربية في قيادة السفن والملاحة، وكان قد اشتُهر بأنه لا شيء يقهر الفرنجة سوى المغاربة؛ لأنهم خالطوهم سابقًا في الأندلس ويعرفون طرق حربهم وطعنهم ولا أحد يتفوق على البحارة المغاربة.. فهم الأكثر معرفة بالريح واتجاهاتها وتحريك المجاديف والإرساء.. وهم من يملكون ناصية البحر.. ويعرفون مسالكه ودروبه.. ويعرفون سواحل العدو وموانئه وأساليبه القتالية..

عندما أراهم.. كنت أهشُّ وأبشُّ في وجوههم قائلاً:

«أهلا بفرسان البحر.. أنتم ناصية الصبر وفاتحة الحرية والنصر.. أنتم رجال ليسوا ككل الرجال.. أنتم ترجمان الشهادة والبيِّنة عند الشك»

كنتُ أحكي لهم عن عكا.. عن نوارسها التي كتبت تاريخ التحرير.. عن شجرة تين كبيرة تشققت ثمارها وتنتظر قاطفها.. عن عناق بحرها لشاطئها.. عن أسماكها التي تغيظ المحتل كما أغاظت أصحاب السبت.. عن بحرها الذي يلفظ كل قبيح.. عن أهلها حيث الجراح تفوح.. عن ملح الصليبيين الذي يُرشُّ على الجرح فيزداد احتراقًا.. عن الخوف الذي يعرّي الروح والخيانات التي تطيل المسافات..

قلت لهم:

«إن أقدامي مازالت عالقة هناك.. لو تتبعتم آثارها لوجدتموني !!»

نعم ستجدون يونس الإشبيلي هناك.. فقد طرّز العشق قلبي بأحلى الألوان..

أعطيتهم سجادة صلاة وعمامة ملونة كان قد أهداني إياها أهالي ضياع عكا..

كانت خطواتهم تبتعد عن الشاطئ صوب السفينة.. كان الشوق يملأ صدري.. ابتلعت ريقي الجاف بصعوبة وقلت في نفسي وهم ينظرون إلي مندهشين من عشقي وشوقي:

ألا يا لائمي في عشق القدس..

ألم تعلم بأن القدس أمّ.. ونحن دونها يتامى ضائعون

***

ذات يوم خرجت لوداعهم.. فقد طلبوا مني أن أخرج معهم إلى الشاطئ وأدعو لهم.. فقد كانوا سيلتحقون بالأسطول الإسلامي بقيادة حسام الدين لؤلؤ..

خرجت لوداعهم وأنا أسأل الله أن أموت في الأرض المقدسة..

أودعهم ورائحة بحر عكا تثير حنيني وشوقي.. الألوان تأخذني من جديد.. حيث زخرف الله الأرض الخضراء لتتداخل مع زرقة البحر في التحام عجيب..

ركب البحارة إلى سفنهم.. وكانت الغيوم قد بدأت تنقشع.. وتظهر زرقة السماء الصافية..

حسام الدين لؤلؤ

«العبد من انقطعت آماله إلا من عند مولاه»
أبو مدين الغوث

ابن البحر أنا.. لا أعرف لي أبًا غيره!

في البحر اكتشفت خلاصة الإيمان والتوحيد.. فيه تأصّلت علاقتي مع الله.. أشرعتي المقطوعة أصبحت عروة وثقى!

ولدت في البحر.. هكذا أظن.. فأقدامي لا تكون راسخة إلا هناك.. فالبحر هو ذاكرتي الوحيدة.. هو بيتي الواسع.. على صفحته نقشت الكثير من الأسرار والحكايات.. أمواجه احتفظت بانتصاراتي، ولأنني أسمو عن الكلام ولا أعرف إلا لغة النصال.. سيأتي يوم ويُخرج البحر مكنوناتي للأشهاد..

علمني البحر أن أخوض دومًا مع الموت سباقًا.. وعلمني أن أكون واسع الخطو كافرًا بالمسافات.. كنتُ أخشى النزول للبرِّ؛ حتى لا أنطفئ! فأنا في البحر أشعر بقوتي وأشعر كذلك بضعفي وانكساراتي.. أشعر أنني أقف بباب الله.. وعندما تكون ببابه يكون النصر حليفك.

ابن البحر أنا وقائد الأسطول المصري الإسلامي.. قاتلت في البحر عمري كله.. وخُضت مع الإفرنج حروبًا ومعارك لا حصر لها..

عندما تختلط الدروب وتمدّ الحرب ألسنتها من كل اتجاه وتسقط

الأشرعة.. أكون أنا الشراع لصلاح الدين الأيوي..

وعندما يعلو طوفان الصليبيين أكون المرفأ الذي يركن إليه.. كنتُ نسره الشامخ الذي يتحول في لحظة إلى قصاص للأعداء!

كنتُ حينًا أهاجم أساطيل الإفرنج، وحينًا آخر أشاغلهم وأحول بينهم وبين وصول إمدادات الصليبيين إلى المناطق المحتلة في بلاد الشام.. أقطع الطرق عليهم.. أمزّق أشرعتهم.. أكسر قواربهم، وفي أحايين أخرى يكون عملي هو تشتيت قوتهم.. بينما صلاح الدين يهاجم في البرّ أكون لهم بالمرصاد في البحر، وبذلك تتفرق قوتهم وتضعف لأنهم يصدّون هجومين في يوم واحد!

عندما كنت طفلاً كانت ألعابي بحرية.. لا أفارق البحر.. أغزل الشباك، وأشارك في صنع الأشرعة، وألملم الأصداف وأجيد التخفي وصنع الكمائن وأخذ الرهائن.. ولم أكن أعرف أن هذه الألعاب ستشكل قاعدتي السياسية للتعامل مع الصليبين..

فعندما حاصر الإفرنج عكا وأطبقوا عليها الحصار من كل جانب.. فطنت لحيلة..

فقد سيّرت سفينة كبرى.. ونجحت في إخفائها بأن جعلت عليها رجالاً من رجالي.. حلقوا لحاهم ووضعوا الصلبان على صدورهم.. وانطلت الحيلة على الصليبيين.. فكانت السفينة تسير مع سفنهم وتُدخل الإمدادات لأهل عكا والمقاتلين المدافعين عنها..

أتقنت غزل خيوط النصر عروة عروة.. وهذا كان يثير دهشة من حولي!

سأخبركم كيف كنت أفعل ذلك.. إنه اليقين.. اليقين بالنصر يصنع النصر..

فقبل أن أقوم بمهاجمة الصليبيين.. أصنع القيود والأغلال والسلاسل التي سأكبّل بها أسراهم.. وقبل أن أرمِّم سفني المتجهة صوب الصليبيين.. أُعيد وصل حبالي مع الله.. ومسح التجاعيد عن الظن بالله.. فأدخل المعركة وقد أحسنت الظن بربي!

وعندما تناهى إلى مسامع صلاح الدين الأيوبي أن أرناط صاحب الكرك قد قطع غابات الكرك وأشجار النخيل في العريش ليصنع من أخشابها هياكل للسفن وقام بتجريب هذه السفن في البحر الميت.. وفي غفلة منا صار له أسطول يتكون من سفن كبيرة ومراكب صغيرة ومتوسطة.. واستطاع أن يفكك هذه السفن إلى قطع ويحملها على جمال مؤجرة من البدو.. لتصل هذه المراكب إلى أيلة على البحر الأحمر ليحتلها وينكّل بالحجاج والتجار ويسلب ويقتل ويذبح ويحرق المواد الغذائية الآتية من اليمن والهند.. وكان أرناط يذبح الحجاج ويقول بأعلى صوته:

«أين محمدكم؟ لو جاء لقتلته بسيفي»

ما حدث أصاب المسلمين بالذعر والرعب.. ليس فقط بسبب هذه الهجمات.. بل لأنه لم يحدث قط أن دخل محارب أو تاجر صليبي إلى البحر الأحمر.. ولأنه أشاع وهو في طريقه أنه ذاهب إلى المدينة المنورة لنبش قبر الرسول - ﷺ - واستخراج جسده الطاهر ونقله إلى فرنسا؛ بحيث يأخذ رسومًا كبيرة حتى يسمح بزيارته!!

لم يتوقع أحد أننا سنلحق بهذا العلج الصليبي! فالوقت كان يداهمنا.. لكنني أؤمن بأن المدد من الله.. فجهزت أسطولاً من السفن في الإسكندرية.. ثم فككت أجزاءه وحملته على الجمال إلى ساحل السويس ثم قام المحاربون المغاربة بحمل الأسطول وتركيب أجزائه.. وقسمت الجيش إلى قسمين.. فرقة ذهبت إلى أيلة واستعادتها من

أيدي الصليبيين، والقسم الآخر ذهب إلى عيذاب.. ففكّ أسر الحجاج والتجار، وأعاد للتجار أموالهم وبضاعتهم وأسر مئة وسبعين صليبيًا..

ثم عبرت بأسطولي ونزلت ميناء جدة.. ومن هناك ركبت الخيل وانطلقنا نسابق الريح لندرك الصليبيين قبل أن يصلوا إلى المدينة ويفعلوا فعلتهم الشنيعة..

ولكي نؤخر وصول أرناط للمدينة.. رفعت أكياس الفضة على رؤوس الرماح لإسالة لعاب الأعراب وجعلهم ينضمون لنا ويتركون مساعدة الصليبيين.. وهذا ما حصل.. فقد تخلى الأعراب عن الصليبين ولم يدلّوهم على الطريق المؤدّية إلى المدينة.. فهؤلاء الصليبيون عميان في أرض ليست أرضهم وتراب لا ينتمون له، ولولا مساندة الأعراب لهم ما استطاعوا التقدم خطوة واحدة!

لقد تاه الصليبيون.. ولم يستدلوا على الطريق، وأوشكت الصحراء أن تبتلعهم.. وقد ساهم هذا في تأخير وصولهم إلى المدينة وأدركتهم قبل وصولهم، وكان عددهم يزيد عن ثلاثمئة صليبي من خلاصة فرسان الصليبيين في الشام.

تحصن هؤلاء في قمة جبل ولاحقتهم أنا وعشرة فرسان.. نعم عشرة فرسان فقط !! قتلنا منهم عددًا.. ثم قيّدنا ما تبقى منهم بالسلاسل والأغلال وحملناهم إلى القاهرة..

وعندما وصلنا القاهرة.. تمّ وضع الجنود الأسرى على ظهور الخيل ترافقهم الطبول والدفوف فقتلوا أمام الناس، وأبقى صلاح الدين عددًا منهم.. حُملوا إلى مكة وقتِلوا يوم النحر..

أما أرناط فقد استطاع الفرار والعودة إلى حصن الكرك.. ولم يكن يعلم أن صلاح الدين يغزل الشِّباك للإيقاع به!

الاستعداد لحطين

«ان اقامك ثبتك وان اقمت بنفسك سقطت»
أبو مدين الغوث

عاد جنود البحرية الذين شاركوا في غزوات صلاح الدين الأيوبي بقيادة حسام الدين لؤلؤ إلى تلمسان.. شقّ موكبهم البهيج هدوء المدينة.. مشوا في الشوارع والأزقة مرفوعي الهامة.. حاملين راية صلاح الدين الأيوبي الصفراء التي يتربعها نسر أحمر.. تتقدمهم طبول الفرح ودعوات المهنّئين وزغاريد النسوة وتكبيرات المآذن التي أعلنت انتصارات صلاح الدين تزامنًا مع التكبير..

قدم الجنود إلى مجلسي.. والتفّ المريدون والطلاب حولهم.. يتلقّطون أخبار تلك البطولات كما يتلقط الحمام الجائع الحب المنثور..

كانت عيون الطلاب متعلقة بسيوف وخناجر الجنود.. يتحدث الجنود عن الأمواج التي تعلو وتهبط.. تخفض وترفع فتعلو أنفاس المريدين وتهبط.. يتخيّل المريدون أنفسهم وسط البحر.. يلقون بجثث الصليبيين على الساحل حتى تصير كالطود العظيم.. يريقون دماءهم.. يثخنون فيهم الجراح حتى يغلب لون الدم على لون البحر.. هم يصلّبون.. وجنودنا يقرؤون القرآن ويذكرون الله كثيرًا ويتوسّلون..

في تلك اللحظة شعرت أن عهد الإعداد والدرس والحشد قد ولّى وحان وقت الفعل.. حانت ساعة الصفر والمواجهة الكبرى والمعركة الفاصلة.. لقد سُنّت السكاكين وشُحذت السيوف، ولم يبقَ إلا الالتحاق بجيش صلاح الدين..

سألت طلابي واحدًا واحدًا.. وأنا أنظر في عيونهم جيدًا.. أتأكد من صدق توهّجها..

«هل أنتم مستعدون للمسير إلى المعركة الكبرى؟ فلم يبقَ على فتح بيت المقدس إلا القليل..!!»

وكانت الإجابة واحدة.. هادرة كموج البحر..

«الله أكبر.. الله أكبر.. إنها اللحظة التي جهزنا لها طويلاً.. وحلمنا بها سنين»

بدأت الاستعداد للخروج من تلمسان.. وهال أولادي قراري ولم يرتضوه.. فقد شارف عمري المئة سنة، وأنهكت السنون جسدي وخافوا عليّ من وعثاء السفر وخوض غمار البحر.. وقالوا لي:

«لا طاقة لك على الحرب يا أبي.. ابقَ هنا..»

وتدفّق الدم حارقًا في صدري.. إذ كيف يحرمني أبنائي من اللحظة التي انتظرتها طويلاً.. وجهّزت جهاز الحرب وتقدمتهم وهم ينظرون إليّ بريبة وشك وكأنهم يقولون لي..

شيخ عجوز لا قِبل له بالحرب..!!

ولكنني مضيت غير عابئ بتلك النظرات وقلت في نفسي.. يكفيني أنني بدأت المسير، ولذّة السير في طريق التحرير قد تكون أجمل وأروع من لحظة الوصول..

وخرجت مع أبنائي وطلابي ومريديّ..

في لحظة خروجي من تلمسان للالتحاق بجيش صلاح الدين.. طافت صورة شيخي عبد القادر الجيلاني في خاطري وهو يدعو لصلاح الدين بالبركة عند التقائه به عام خمسمئة وثلاثة وثلاثين ويقول له:

«السيف قد أعمل في رقاب المسلمين وقتًا طويلاً.. والنفوس مجروحة والأجساد مصلوبة على خشبة الذلّ وسهام الصليبيين تُطلق من كل حدب وصوب.. كيف لا وقد استولوا على الساحل الشاميّ من أنطاكية شمالاً إلى عسقلان جنوبًا.. ثم نظر إليه مليًا وكأنما كان يتفحصه ويتفحص تعابير وجهه وقال له:

«النصر ليس بمعجزة.. فزمن المعجزات ولّى.. إنه استعداد طويل.. كما تستعد الدرّة في المحارة»

هاهي خيل المسلمين يا شيخي تترك الصهيل وتنحاز للمضمار استعدادًا لحرب فاصلة مع الصليبيين.. هاهي الحشود تتدافع من كل حدب وصوب تنتظر شارة البدء.. نم قرير العين يا شيخي..

لا شيء أوضح من الحرب.. ولا شيء أكثر غموضًا منها.. كان كل شيء ينبئ باقترابها..

ووصلنا دمشق، والتحقنا بجيش صلاح الدين قبل أن يخرج صوب حطين في شهر محرم (خمسمئة ثلاثة وثمانين) 583..

نادى صلاح الدين بصوت ثابت.. أين المشاة؟ أين الرماة؟ أين الفرسان؟ أين المتطوّعون؟.. تقدمنا كلنا نحوه بخطى ثابتة.. كان أبنائي وطلابي ينظرون إليّ غير مصدّقين خطوات أقدامي وصلابة ظهري واستقامته..

قال صلاح الدين:

«كونوا على الميقات.. فالله لن يخلف الميعاد

افتحوا الباب.. تقدموا.. فوجه النصر حيثما تولّون وجوهكم»

والتقينا بصلاح الدين.. كان أسمرَ طويلاً.. نحيلاً.. حادّ النظرات.. ثابت القلب.. كان ينظر مليّاً في السماء.. يتجه بنظره شمالاً وجنوبًا.. ويدور ليلتفت شرقًا وغربًا.. كان يقف على جبل قاسيون وعينه على القدس..

بعد ذلك اللقاء مع صلاح الدين.. عرفنا خطته واستراتيجيته لشق الصف الصليبي.. فقد جمعنا نحن قادة المتطوعين من المغرب وديار بكر والموصل والجزيرة.. وقادة جيوشه في مصر والشام والجزيرة والموصل وقال:

«سأرسل لأهالي حلب أمرًا حتى يصالحوا أمير أنطاكية (بوهيمند الثالث) حتى أُغلق باب الاشتباك معه مؤقتًا.. وسنتجنب الاشتباكات الجانبية مع الصليبيين حتى لا ننهك أنفسنا ونوفّر جهدنا وقوتنا للمعركة الكبرى»

في أثناء الاجتماع وصلت لصلاح الدين الأيوبي رسالة من ريموند الصيجلي أمير طرابلس يخبره فيها برغبته في التعاون معه ضد ملكة بيت المقدس التي خلعت تاج ملكها عن رأسها ووضعته على رأس زوجها (جاي) وأدرك صلاح الدين الحقد والغل الذي بين سطور الرسالة تجاه ملكة بيت المقدس حيث كان يطمح الصنجلي بوراثة هذه المملكة.. فالتقط صلاح الدين هذا الخيط وقال لنا:

سأمدّ الصنجلي بالمعونة والعدّة والعتاد اللازم.. وهكذا استطاع صلاح الدين أن يفتح ثغرة في حصون الصليبيين؛ بأن جعل مملكة بيت المقدس وحيدة دون مساعدة أكبر إمارتين صليبيّتين وهما إمارة

(طرابلس وأنطاكية) ولأول مرة تتّسع الرقعة ويزيد الشرخ في الصف الصليبي بينما يُقطّب الشق في الصف الإسلامي ويغدو الصف متماسكًا..

كان صلاح الدين يتقن خلع الأعشاب التي نمت على طريق النصر المهجور.. يكسر الأقفال ويضرب الأوتاد بالأرض ويوحّد الجيوش.. ترى في جيش صلاح الدين جموع المتطوّعين من كل البلاد.. من المغرب العربي والعراق والشام ومن كل الأطياف.. فترى في الجيش أصحاب العمائم والخِرق.. والفقهاء والعلماء والأطباء والشعراء والنسّاخ والنجارين والبنائين والحدادين وقد تدربوا تدريبًا عسكريًا مع ذخيرتهم الروحية والمعنوية..

وانطلقنا من دمشق صوب الكرك للتمويه.. فلم يكن صلاح الدين يقصدها..

كان صلاح الدين يبسط لنا خريطة بيت المقدس كل يوم، ويحضر مجسمًا لها ويقول:

اقترب يوم استعادة بيت المقدس.. فالفرصة مواتية لذلك.. لكن مازالت بعض مدن الساحل تحت سيطرة الصليبيين، وكانت الأسئلة في أذهان القادة تتم إجابتها تباعًا من قبل صلاح الدين.. فأكمل:

«هذه المدن الساحلية الصليبية ستحصل على المدد من الوطن الأمّ في أوروبا وسيمدّون بيت المقدس بالسلاح والعدّة والعتاد؛ لذلك وبعدما نجحنا في اختراق الصف الصليبي علينا أن لا نكشف خطوات سيرنا.. ولكي نقوم بعمل بلبلة وتمويه عن هدفنا الحقيقي.. سننطلق إلى حوران ثم إلى بصرى ومن ثم نتوجه صوب الكرك دون أن نقصدها..

وفعلاً خرجنا من دمشق صوب الكرك.. وسرّح صلاح الدين جنوده وعساكره في المنطقة وبقينا في الأردن شهري نيسان وأيار حتى نقوم بالتغطية على الحشود التي كانت تتجمع تمهيدًا لقتال الصليبيين في حطين.

معركة حطين

«نسيان الحق خيانة والاشتغال عنه دناءة»
أبو مدين الغوث

المِرود لا يكحِّل عينًا بها عمى! والنصر لا تقطفه كفّ وحيدة!

وفي النصر لا يكفي أن تراهن على حصانك الذي خبرته في الميدان جيدًا.. فلابد أن تعرف خيل عدوك أيضًا.. لابد أن تتقن نصب الشِباك وتُحكم نصب الكمائن.. عليك أن تعرف أي المساحات تستطيع اختراقها.. أي الآبار معين.. وأيها ملح أُجاج.. أي الدروب فخاخ وأيها سهل رواح.. لابد أن تتقن التأويل وفك لغز الأحداث!

ولذلك كله.. قام صلاح الدين باختراق استخباراتي للصليبيين.. فقد كان يهدي إلى زوجة أمير أنطاكية أنفس الهدايا.. وكانت تزوّده بخطط الصليبيين وتحركاتهم أولاً بأول.. وهذا جعل جيشنا يدخل تلك المساحات متجنبًا المفاجآت!

قال لنا صلاح الدين وهو يقف معنا ينظر إلى طبريا التي تلوح في الأفق متسائلاً:

«هل نغير عليهم غارات متفرقة تنهكهم وتُضعف مقاومتهم تمهيدًا للضربة القاضية.. أم نهاجمهم مرة واحدة في معركة فاصلة؟»

وبعد مناقشات طويلة وحسابات دقيقة توصلنا لقرار يقضي

بالاشتباك والهجوم لمرة واحدة وتكون هي الضربة القاضية والفاصلة..

ففي هذه اللحظة يُعتبر جيشنا أقوى ما يكون.. فقد تمّ توحيد اليمن والعراق والحجاز ومصر والشام تحت إمرة صلاح الدين.. واجتمعت الجيوش النظامية مع المتطوّعين الذين جاؤوا من أماكن بعيدة.. من مصر وحلب والجزيرة وبلاد المغرب العربي وديار بكر.. فضلاً عن المعلومات الاستخباراتية الوفيرة التي وصلت إلينا والانقسامات الكثيرة في الصف الصليبي التي انتشرت رائحتها ووصلت إلينا؛ لذلك كله توصلنا إلى أن هذا هو الوقت المناسب للهجوم..

وكان السؤال الآخر..

هل نذهب إليهم؟ أم نستدرجهم ليأتوا إلينا؛ فتمركزهم في صفّورية يعطيهم قوة ومنعة كبيرة.. فصفّورية ملأى بالمراعي الخضراء والمياه ونابضة بالحياة..

وكان الرأي المجمع عليه أن نستدرجهم ونجبرهم على المسير إلينا.

نظر صلاح الدين إلى الجمع نظرة ثقة.. ربّت على ظهور قادته.. شدّ على أيديهم واحدًا واحدًا وأصدر أوامره..

«أريدكم أن تمشطوا صفّورية شبرًا شبرًا.. لا تدعوا موضعًا إلا وترتشفوا منه رشفة بسيوفكم..»

وهكذا كان..

فصارت تخرج كل يوم مجموعة مقاتلة لمباغتة الصليبيين في صفّورية واستدراجهم.. غير أننا لم ننجح في ذلك ولم نستثرهم وبقي الصليبيون يتمركزون في مواقعهم.

حينه كان لابد من اتباع الخطة الأخرى.. وهي الهجوم على طبريا القريبة من صفّورية..

وعندما بدأت الحشود الهادرة بالتوجّه صوب طبريا.. جُنّ جنون الصليبيين وبدأوا بالتحرك صوبنا.. عندها صرخ صلاح الدين مبتهجًا:

«لقد حقّقنا أول مقصد»

كانت بحيرة طبريا تتلألأ أمام أعيننا.. الأرض بساط أخضر يلتفّ حول عنق البحيرة كشال فتّان.. ضروع الأغنام ملآى وصوت ثغائها يملأ السهل والوادي.. ينابيع المياه تفور هنا وهناك.. وتغريد البلابل وزقزقة العصافير تشيع البهجة في النفوس..

طبريا تقع على كتف البحيرة الغربي.. أسفل الجليل.. ومصبّ نهر الأردن لا يبعد عنها سوى عشرين كيلو مترًا..

وما أن وصلنا طبريا وبدأنا الهجوم على قلعتها حتى دعا ملك بيت المقدس (جاي) قومه إلى مجلس حرب..

كانت أخبارهم تصلنا تباعًا أولاً بأول.. كانت المعلومات الواردة تفيد بأن الخلاف شبَّ بين ملك طرابلس (الصنجلي) وملك بيت المقدس.. فقد أشار ملك طرابلس على قومه بالبقاء في صفّورية وقال:

«لقد رأيتُ معسكر المسلمين قديمًا وحديثًا.. وما رأيت مثل ذلك العسكر الذين مع صلاح الدين من كثرة وقوة»

حينها استشاط أرناط ملك الكرك وجيرار مقدم الداوية غضبًا، وأخذا يكيلان الاتهامات للصنجلي بالخيانة والانحياز للمسلمين.. وظلت النار مشتعلة بينهم واستطاع أرناط وجيرار التأثير على ملك بيت المقدس الذي أصدر أوامره بالمسير نحو طبرية.. وهكذا وقعوا في الفخّ الذي نصبه لهم صلاح الدين..

بدأنا نسمع أصوات أقدام الجنود القادمة نحونا.. كانت عيونهم منطفئة وأفواههم فاغرة.. يجرّون أقدامهم المكبّلة جرّاً.. وكانت

الكمائن التي نصبها صلاح الدين لهم أثناء الطريق تنهك قواهم وتفتُّ في عضدهم، ومؤخّرة الجيش لم تكن قادرة على مجاراة سير المقدّمة والاتصال بالملك.

كنا نراقبهم عندما وصلوا إلى هضبة حطين.. هذه الهضبة التي ترتفع عن سطح البحر أكثر من ثلاثمئة متر، ولها قرنان يُطلق عليها اسم قرون حطين..

لقد وصلوا.. منهكين.. متعبين.. عطاشى، وعندما وصلوا سُقط في أيديهم وأصابتهم الرجفة والذعر، وتمنّوا لو انشقّت بهم الأرض وابتلعتهم.. فقد حال جيشنا بينهم وبين ماء طبريا.. بينما كنا نحن قد عسكرنا في منطقة سهلة.. غنيّة بالمراعي والمياه وقد وفّرنا جهدنا.. تكلّلنا السكينة وتغشانا الرحمة..

في الليلة التي سبقت المعركة.. كان صلاح الدين يتفقد خيام المجاهدين.. يدخل إلى الخيام.. يصلي مع الجنود.. يقرأ القرآن.. يتوسّل.. ويتذلّل.. وينكسر.. يمسح دموعه المشتعلة.. ثم يقوم إلى خيمة أخرى فيقرأ مع جنوده قول الله تعالى ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾

يسأل جنوده.. لماذا تدخلون المعركة ؟

يردّدون بصوت هادر.. «نصرة لله ولمقدساته»

تكلم صلاح الدين والكل يشعر بحرارة أنفاسه:

«النصر سنّة ربّانية لا تتعطل إلا إذا خنت ربك ! فلا تدخل الحرب إلا وقد اخضرَّ وعد الله في عينيك.. لقد تعطّلت هذه السنّة والرسول بين ظهراني المسلمين.. كما حدث في غزوة أحد.. فهذه سنّة الله التي لا تحابي أحدًا..

قبل أن تتفقد رمحك وسهمك وترسك وسيفك.. تفقد قلبك.. إياك أن يكون عاريًا.. تائهًا لا يعرف وجهته.. إياك أن تتكئ على غير الله..

أشهر سيفك في قُبح قلبك.. قبل أن تشهره في وجه عدوك.. واعلم أن الهزائم مؤقتة ولا تكون إلا تأديبًا على الخطايا..

ثم يدخل إلى خيمة ثالثة.. فيرتل قول الله تعالى ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ويردد الجند وراءه ويقول:

«فرار القدم منوط بفرار القلب.. فاحذروا أن تفرّ قلوبكم..»

ثم يدخل إلى خيمة رابعة.. ويرتل قول الله تعالى: ?كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّه وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ?

ويفسرها وهو ينظر في عيون أجناده متفحّصًا..

«لن نهزم من قِلّة.. والكثرة لن تغني عنا شيئًا»

وإن وجد خيمة مطفأة كان يوقظهم بترتيله للقرآن..

قبل الاشتباك بساعات قليلة.. عند وقت السحر.. وقف صلاح الدين في مقدمة الجيش يناجي ربه.. سقط ضوء القمر على وجهه.. فظهرت عيناه الملتمعتان بالدموع.. المتوهّجتان بالخشوع وشفتاه اللتان تلهجان بذكر الله.. وعظمتا خدّيه البارزتان..

وأخذ يدعو والجيش الذي يمتدّ على مرمى بصره تكلّله السكينة والطمأنينة ويغمره الدفء والقرب من الله.. يدعو وصوت الجيش يهدر كموج البحر الصاخب.. «آمين».

«إلهي لقد انقطعت أسبابي الأرضية ولم يبقَ إلا الإخلاد إليك والاعتصام بحبلك والاعتماد على فضلك.. أنت حسبي ونعم الوكيل».

في تلك اللحظات خشعت النجوم، وتهجّد القمر في محرابنا، واهتزت الأعشاب التي حولنا تترنم بلحن دعائنا.. وألقت السماء علينا شالها تحضننا وتلفّنا بحنانها..

كنا ننتظر باب الرحمن ليُفتح لنا.. تلاحمت أيدينا مع بعضها البعض وتعاهدت على النصر والشهادة..

لم تكن أرض حطين تعلم أنها ستشهد أعظم معركة على وجه الأرض.. لم تكن تعلم أن هذه المعركة ستخلد اسمها على مر الأجيال..

وحانت ساعة المواجهة.. وبدأ الهجوم يوم السبت (الرابع والعشرين) من 24 رجب سنة (خمسمئة وثلاث وثمانين) 583..

أشعلنا النيران في الأعشاب والأشواك اليابسة التي تكسو المنطقة.. كانت الريح تهبّ صوبهم.. كانت أصوات صرخاتهم واستغاثاتهم تتفشّى في فضاء حطين.. فالعطش ولهيب النيران وسيوف المسلمين والدخان يحاصرهم من كل جانب..

وتردَّد في الأرجاء صوت صلاح الدين يحث جنوده على الاستيلاء على الصلبوت.. فهو يعرف قيمته المعنوية عندهم.. وهبّ جنودنا من كل حدب وصوب لتلبية النداء وبمجرد الاستيلاء على الصلبوت.. انهارت معنويات الصليبيين وتحطمت نفسياتهم كما كان يتوقع صلاح الدين.. ففرّ بعضهم من أرض المعركة.. وبعضهم فرّ صوب معسكر المسلمين مستسلمًا.. وبعضهم أخذ يصعد إلى أعلى الجبل ظانّاً أنه سيعصمه من طوفان المسلمين الهادر.. ولكنّ الجبل أخذ يلفظهم فصاروا يتساقطون كحبات الخرز من المسبحة.. ما بين قتلى وجرحى.. ولم يبق حول ملك بيت المقدس إلا مئة وخمسون فارسًا من فرسانه المشهورين بالشجاعة والبسالة..

حينها نظر صلاح الدين إلى خيمة ملك بيت المقدس المحميّة بهؤلاء الجنود وأطلق ضحكة مدوّية.. بينما الجنود حوله لا يعرفون تفسيرًا لهذه الضحكة!

هتف بحماس وهو يتابع التحديق في الخيمة..

«هذه الخيمة هي آخر وتدٍ لهم في هذه الأرض.. من سيقلع هذا الوتد؟»

سقوط هذه الخيمة.. يعني سقوط الصليبيين عن بكرة أبيهم..

وأُسقطت الخيمة.. وتم أسر ملك بيت المقدس وأرناط وصاحب جبيل وابن صاحب طبرية وجيرار مقدم الداوية..

وأغلقت الحرب آخر زرّ من أزرار قميصها، وهدأت النار التي استعرت.. وتراءت لنا حطين وقد تذوقت طعم الانتصار معنا، وكسرت مخالب الصليبيين وقيّدت أيديهم خلف ظهورهم بالأغلال..

ثم أمر صلاح الدين أن تُضرب له خيمة.. فنزل وصلى وأطال سجود الشكر.. ثم أمر بإحضار ملوك الصليبين واستقبلهم استقبالاً حسنًا، وأجلس الملك جاي على جانبه، وأجلس أرناط بجانب الملك جاي، وقدّم لجاي الماء المثلّج.. وبينما أرناط يتابع جاي وهو يشرب الماء المثلّج وكأنه يستجديه بشربة.. فناوله جاي الكأس وشرب..

حينها غضب صلاح الدين غضبًا شديدًا حتى نفرت عروق وجهه الساكنة وقال للملك جاي:

«الماء المثلّج لك وحدك فقط أما أرناط فلم آذن له بالشرب»

وقف صلاح الدين كنخلة سامقة وفي يده سيفه مشهرًا.. وبحركة مفاجئة هزّ كتف أرناط حتى كاد يخلعه بيده وصرخ بصوت مليءٍ بالغيظ والحنق:

«ها أنا استنصر لمحمد..»

ثم مشى عدة خطوات وعيناه مصوبتان كرمح في وجه أرناط وأكمل:

« كنتُ قد نذرت دفعتين أن أقتلك إن ظفرت بك.. إحداهما لما سِرت صوب مكة والمدينة تريد قبر رسولنا - ﷺ -.. والثانية لما نقضت العهود والمواثيق وقتلت الحجيج والتجار غدرًا..»

ثم عرض عليه الإسلام فأبى.. فما كان من صلاح الدين إلا وهوى بسيفه المسلول على أرناط وحلّ رقبته عن كتفه..

ارتعب جاي لوزينان.. وغاص قلبه بين قدميه.. فقد ظن أن صلاح الدين سيقطع رأسه أيضًا..

إلا أن صلاح الدين مشى عدة خطوات صوبه.. وطيّب نفسه وقال له:

«لم تجرِ عادة الملوك أن يقتلوا الملوك»

ثم عرّج على جيرار مقدم الداوية الذي كان يراقب المشهد بصمت، وكان ينتظر حكم صلاح الدين فيه وهو الذي نقض العهود والمواثيق وخلع مع رفاقه الزي الديني الأسود واستبدله بالوشاح العسكري الأبيض والشارة الصليبية الحمراء وعاضد أرناط وكان هو وفرسانه الـ 300 (ثلاثمئة) من أشرس الصليبيين عداوة للمسلمين..

اقترب صلاح الدين منه.. ودون أن يراجعه في أفعاله التي يعرفها تمامًا.. عرض عليه الإسلام ولما رفض هو وفرسانه.. قتلهم كلهم عن بكرة أبيهم.

«اذا ظهر الحق لم يبق معه غيره»
أبو مدين الغوث

لقد استظلّ صلاح الدين بنصر حطين، وبدا لنا الكون كله ظلاً وفيْئًا!! خرجنا من حطين وخطوات أقدامنا تستدل الطريق إلى القدس..

أنفاسنا تغلي والشوق يذيبنا.. أرواحنا كأنها حواصل طير خضر معلقة بسماء القدس.. لكنّ صلاح الدين أدار ساقية الحرب نحو الشاطئ.. فقد كان يخطو بضع خطوات للأمام وخطوة للخلف..

قال لنا:

«الطريق إلى القدس ليس طويلاً؛ إن لم يخن إخوة الدم الشريان!

إنه بمقدار نزع سيف من غمده.. وفتح مزلاج باب!!

فقط..

اجعلوها وجهة سيوفكم.. وخطّ استواء قلوبكم..

حينها تُختصر المسافات.. ويُحثى على الخيانات التراب..»

وكانت هذه هي الوصية العاشرة..

نحن في طريقنا للقدس.. لكن لابد من خطوة للخلف.. وخطوة الخلف هذه المرّة هي الذهاب صوب الساحل.. فلن نستطيع فتح القدس مادام الساحل في أيدي الصليبيين.. فتح القدس قبل الساحل سيجعل الفتح مؤقتًا لا قيمة له؛ لأن الغرب الصليبي سيقوم بإرسال

المدد إلى موانئ الشاطئ وحينها سنكون وكأننا ما غزونا!! وسنبقى نراوح أماكننا!!

سرنا نحو الساحل.. فاستسلمت لنا غزة وعسقلان وباقي مدن الساحل.. وهبَّت علينا نسائم القدس التي تتهيأ لاستقبالنا بعد ثمانية وثمانين عامًا من الاحتلال الصليبي!

وقبل أن يعود المتطوِّعون المقاتلون إلى ديارهم.. حرَص صلاح الدين على إرسال الرسائل إلى كافة أنحاء العالم الإسلامي.. يزفُّ إليهم بشرى نصر حطين والاستيلاء على الساحل الشامي ويخبرهم أنه سيغذُّ السير صوب القدس.. فمن أراد اللحاق بهذا الشرف فليستعدَّ للّحاق.

وما أن وصلت هذه الرسائل حتى توافدت الجموع من كل حدب وصوب.. يتقدمهم العلماء والفقهاء.. فالكل ينتظر هذه اللحظة.

في تلك اللحظات.. خيِّل إليّ أن هذه الجموع الهادرة العطشى للتحرير.. ما هي إلا شجرة عظيمة جذرها مشدود لأرض واسعة.. من مغرب العالم الإسلامي إلى مشرقه.. تخبّئ في أعماقها حبّات ماء تغسل الدرن!

لاحت لي سنوات عمري التي شارفت على المئة مثل رحى تطحن الحبَّ وتنثره ليكون زادًا للجائعين كرامة وحرية..

كان صوت الرحى عاليًا عاليًا.. أنظر إلى عمري من عل.. أشتم حينا رائحة تلك السنين العبقة بالنسرين والحبق.. وحينا آخر أشتمّ رائحة الوجع!!

وفجأة صمت صوت الرحى، وعلت همهمات من المتطوِّعين فهمت مغزاها..

اقترب أحدهم مني متفحصًا مندهشًا وقد قُطعت يدي في المعركة وقال:

«يا شيخنا.. كيف وصلت إلى هنا؟ ما الذي جاء بك وقد اشتعل رأسك شيبًا وانحنى ظهرك؟!! لو أنك تركت الأمر لأولادك!!»

قلت له:

«حملني قلبي يا بني!»

قال الرجل وهو يُلمِّع سيفه ويهيّئه للقتال:

«ولكنك قد تكون عبئًا على المجاهدين.. فالشباب هم النغم الذي لا يستقيم لحن النصر إلا بهم..

هم من يسندون الأوطان..» ثم أكمل بصمته ما لا يستطيع إكماله بالكلام..

قلت له وقد استويت في جِلستي وأسندتُ هامتي:

«يابني وهل الأمر مقصور على الشباب؟ وهل هناك من هو أولى بالشهادة من الوعّاظ والعلماء!!

أنُسرج الخيل ثم نقعد ننظر إليها تقدح أقدامها شرراً؟!

أنُجهّز العدّة والعتاد.. ثم نقعد ننتظر أخبار الانتصارات؟!

لقد مضى عمري يا بني وأنا أعدّ العدّة لهذه اللحظة.. ولقد شاء الله أن يكون الأقصى في المصحف لنلبي نداءه..

الأقصى ليس أمنيتي فقط.. إنه أمنية شيخي عبد القادر الجيلاني.. الأقصى ليس معركتي أنا فحسب.. إنه معركة الأمهات اللواتي ربَّين حلم النصر كما ربَّين صغارهن..

إنه معركة الأمهات اللواتي كنّ يُشرنَ بأصابع أطفالهن كل صباح صوب القدس.. فهو الوجهة وهو القبلة الأولى!

أنا هنا في أرض المعركة أحمل عمري المئة وفوقه مئة أخرى.. هي عمر أمّة لم تنسَ مقدساتها وما جفت دماء شهدائها وماعقمت أرحامها أن تلد الأبطال والأحرار..

أنا ابن أولئك الناس الذين عاشوا وماتوا ورسم الأقصى في أهدابهم ما غفى ولا مات!

أنا ابن السبعين ألفًا الذين قُطِّعت رقابهم في القدس فكان النزف من دمي!»

***

وصلت الجموع إلى بيت المقدس.. وسرنا صوبه وقلوبنا تطير من أقفاصها.. وعندما اجتمعت الجموع الهادرة.. وقف صلاح الدين بفرسه وصرخ:

أيها الجنود:

«هذه هي الأرض المقدسة التي سأل موسى ربَّه أن يدنيه منها رمية حجر..

هذه هي الأرض التي حبس الله الشمس لأجل أن تُفتح على يد يوشع بن نون..

هذه الأرض التي حكم الله بالتيه على من تخلى عنها..

هذه الأرض التي وطئتها أقدام نبيكم محمد - ﷺ -.. فصلى فيها وركع وأمّ بالأنبياء والرسل..

ليس فيها موضع.. إلا وسجد فيه نبي.. أو سار صحابيّ..

اسجدوا طويلاً.. رتلوا التنزيل.. فأصواتكم امتداد لأصوات الأنبياء..

لا عليكم سوى أن تشعلوا الفتيل، وليكن زيتكم اليقين.

ولأن القدس محصّنة تحصينًا شديدًا فقد حرص صلاح الدين على إحضار أدوات الحصار الكافية.. من مجانيق ونفّاطات وسهام ونبال وعرّادات وقطّاعات..

أطلق صلاح الدين النقّابين؛ لينقبوا الأسوار، وتم تغطية عملهم بالمجانيق التي نُصبت على قوائم خشبية ووضعت في أذرعها الحجارة وكرات اللهب.. فيما كانت السهام والنبال والنيران المطلقة صوب المسلمين تعيق عمل النقّابين الذين رُموا بالسهام والنبال وقُذفوا بالنفط المسال فاحترق عدد كبير من المسلمين وسالت جلودهم على مرأى منا.. فيما نجح بعض النقّابين بدكّ الأسوار وحشوها بالحطب والنفط وإشعال النيران لفتح ثغرات بالأسوار للنفاد منها..

اشتدّ القتال.. ووصل إلينا خبر تزاحم الناس على الكنائس وضربهم أنفسهم بالحجارة وتقطيع النساء لشعورهنّ وشعور بناتهن لاستثارة نخوة وهمة الرجال وحثّهم على عدم الاستسلام!

وفي أشد لحظات حصار المدينة المقدسة.. وبينما السهام والنبال لا تترك طيرًا يطير في السماء، وإذ بوفد من نصارى المدينة المقدسة يقدم على صلاح الدين الأيوبي..!!

نهض صلاح الدين من مجلسه عندما رآهم.. هشّ وبشّ في وجوههم.. أكرمهم.. وأدناهم من مجلسه وطمأنهم قائلاً:

«أهلا بأهل مدينتنا.. وذمة نبينا وعهدة خليفتنا عمر بن الخطاب.. ما يجري علينا يجري عليكم.. لا تثريب عليكم اليوم.. وإن سألتم عن مصير كنائسكم ودور عبادتكم.. فستعود إليكم بعد خروج الغزاة الفرنجة الغاصبين!!»

بكى أحدهم وبلّلت دموعه لحيته وهو يقول:

«لقد كنا نعيش تحت ظلّكم بأمان الله.. سالمين منعّمين لا نخشى ظلمًا ولا رهقًا.. آمنين في كنائسنا وعلى أرواحنا إلى أن جاء هؤلاء الغاصبون فاغتصبوا أرضنا ودور عبادتنا!!»

***

واشتدّ قتالنا مع الصليبيين.. وأصدر صلاح الدين أوامره بالهجوم على كافة الأسوار حتى تتشتّت قوتهم.. وأمر أصحاب المناجيق بألا يصوّبوا قذائفهم بعيدًا عن الأسوار حتى لا تتضرر المدينة المقدسة.. تساوينا معهم بأدوات القتال وتفوّقنا عليهم باليقين والإيمان..

فكان لابد من تدخّل إرادة الله ليُحسم الأمر!

حينها جاء باليان مطأطئ الرأس.. ذليلاً كسيرًا طالبًا الأمان لقومه..

وقف صلاح الدين ونظر إليه بعزة وقال:

«لقد عرضت عليكم الأمر سابقًا ورفضتم!! ولا أستطيع أن أجيبك حتى أستشير قومي..»

ودخل صلاح الدين إلى خيمته.. فارتفعت الأصوات قائلة:

«لماذا نعطيهم الأمان.. لماذا نقبل الدنيّة في ديننا ونحن قاب قوسين أو أدنى من القدس؟

كيف ننسى ما فعلوه في أهلنا من ذبح وحرق وتدنيس للمقدسات؟

الآن جاء وقت القصاص.. فلنعاملهم بالمثل.. أبعد أن مكّننا الله منهم ونصرنا عليهم نؤمّنهم ونصالحهم؟!!»

واحتدّ الجمع..

وقف صلاح الدين وردّ على الجميع بحزم وروية:

«نحن الآن في موضع قوة وبأس شديد.. ونملك أن نقطع رؤوسهم واحدًا واحدًا، ولكننا نعاملهم بأخلاقنا وما يمليه علينا ديننا من تسامح وعفو.. فإن عاملناهم بالمثل فقد استوينا معهم في سوء أخلاقهم..»

ولكنّ القوم أصرّوا على رأيهم.. فنزل صلاح الدين عند رأي القوم وخرج إلى باليان رافضًا أن يعطيهم الأمان ومصمّمًا على فتح المدينة عنوة..

لملم باليان ما تبقى عنده من رجاء.. وبرزت عروقه الجافة وحدّق طويلاً في المسلمين ثم قال:

«إن كان لابد من الاستسلام فلن نستسلم قبل أن نحرق المدينة والمساجد والأقصى والمقدسات والأشجار ونقتل النساء والأطفال؛ حتى لا يبقى ما نخاف عليه وراءنا.. ونقتل الأربعة آلاف أسير مسلم عندنا.. نقتلهم عن بكرة أبيهم.. ثم نتقدّم صوبكم.. نقاتلكم قتال اليائس الذي خسر كل شيء وليس وراءه ما يخسره!!»

حينها.. نهض صلاح الدين من مجلسه.. ومشى بضع خطوات.. ثم نظر إلينا نظرة فهمنا منها ما يريد قوله.. فأشرنا له بالموافقة.. قال:

«أجبناكم إلى الصلح.. على أن تُفتدى كل نفس منكم بعشرة دنانير..»

فقال باليان:

«ليتك تجعل فداء المرأة خمسة دنانير والطفل دينارين ونصف».. فقبل صلاح الدين..

وانقشع غبار المعركة.. فالتمع المسجد الأقصى.. كان نوره أشدّ بهاءً وسطوعًا من نجم في السماء!!

فركتُ عينيّ طويلاً لأتأكد أنني لا أحلم!!

ياه..!!

إنها المدينة التي لا تموت أبدًا؛ لأنها تولد مع كل شهيد!!

ترفع الرايات والأعلام.. الناس يتدفّقون من كل حدب وصوب.. شباب يحملون آباءهم على ظهورهم.. أطفال.. نساء.. عجائز يلهجون بحمد الله..

تعلو تكبيرات العيد.. لا تتوقف أبدًا ولا تهدأ.. الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا.. وسبحان الله بكرة وأصيلا..

إنها تتدفق كموج البحر عالية.. بعض الأصوات تبلّلها الدموع.. وأخرى خفيفة ورقيقة كريشة طائر تطير فرحًا..

لم تكن أصواتًا عاديّة.. أزعم أنها أصوات ملائكة شاركتنا الفتح!!

الصليبيون يتطايرون كما تتطاير صحف أصحاب الشِّمال.. يخرجون في مواكب.. لا أحد يستوقفهم.. لا أحد يترصّد لهم ليؤذيهم أو يعرقل مسيرهم..

في تلك اللحظة جفّ ريقي.. التفتّ حولي.. فهم ابني ما أبغي؛ فناولني كأس ماء لم أستطع بلعه.. فقد تراءت لي دماء آبائنا وأجدادنا الذين وصلت دماؤهم للركب عندما دخل الصليبيون بيت المقدس لأول مرة!! تراءت لي رؤوس الشهداء التي ملأت الشوارع، ولم يستطع أحد أن يسير إلا بالانتقال بينها!!

كنتُ ظامئًا لمئة عام.. وحان الوقت كي أشرب!!

شربت.. شربت وارتويت..

المسلمون يدخلون إلى جنّتهم الموعودة.. ينشقّون سراعًا وكأنهم يخرجون من قبور المنافي.. يُبعثون من قهر الهزيمة.. لا يلتفت أحدهم إلى الآخر.. كلٌّ في شغل فاكهون.. كلٌّ منهم يتبع حكايا جدته

وأمه.. ووعد ربه.. يهتز لهم زهر جنتهم ويخضرّ ويورق حلم العودة..

يتوافد الخطباء والعلماء والوعاظ من كل حدب وصوب.. تتطاول الأعناق وتشرئب ليراهم صلاح الدين علّهم يحظون بشرف خطبة الفتح الأولى في الجمعة الأولى..

ينظر صلاح الدين على الجموع وكأنه يبحث عن شخص بعينه.. يجد ضالته.. ينادي:

يا محي الدين بن الزكي!!

وكيف لا يكون محي الدين بن الزكي هو خطيب الفتح.. وهو الذي تنبّأ بفتح القدس يوم فُتحت حلب قبل أربع سنوات.. فقال منشدًا:

وفتحك القلعة الشهباء في حلب..... مبشِّر بفتوح القدس في رجب

وعندما سألوه عن هذه النبوءة قال.. إنها نبوءة ابن برجان!!

رائحة ماء الورد تعبق في الأرجاء.. بعد أن تم تنظيف المسجد من الصلبان والخنازير والقاذورات..

وصعد ابن الزكي المنبر.. منبر نور الدين محمود زنكي!!

أتأمل المنبر.. الذي أمر صلاح الدين بإحضاره من حلب.. ذلك المنبر الذي صنعه نور الدين زنكي قبل التحرير بتسعة عشر عامًا!!

جلستُ مع الجموع استمع للخطبة.. لكنني ولّيتُ وجهي صوب نور الدين.. أحكي له حكاية التحرير وأبوح له بما يجول في خاطري.. إخاله ينصت لي مبتسمًا..

قلت له:

لله درك يا شيخنا وقائدنا..

لقد كنت متوشّحًا بوشاح النصر.. تراه رأي العين!!

عشتَ لحظة التحرير قبل وقوعها! وتذوّقت طعم البشارة قبل قطفها..

لم ترَ النتيجة.. لكنك عشتها بكل تفاصيلها

كانت القدس وِردًا من أورادك.. تتلوها صباح مساء..

بهذا المنبر أبصرنا وجه القدس البهيّ.. نبّهت الغافلين والقانطين..

صنعت منبرًا.. فأوحيت للناس برسالة مفادها:

هذا المنبر كسفينة نوح.. فاركب معنا يا من ترنو للعودة إلى بيت المقدس!

استعدَّ.. فاللقاء قريب.. فالقدس أقرب إليك من عروق الصدر وأهداب العين..

أبقوا المنبر أمام أعينكم؛ ليذكّركم بأن القدس ليست بعيدة!!

هذا المنبر.. لم يكن مجرّد منبر خشبيّ.. إنه روح نفتث في الأمة الروح..

كان منبرًا خشبيًا معشّقًا.. تتداخل قطعه الخشبية ببعضها وتتآزر كما يتآزر الجسد الواحد.. هذا المنبر هو الذي أحيا القدس في القلوب..

مازالت التكبيرات تعلو وتعلو.. تصدح في الأرجاء أصوات الفاتحين بقول الله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ .

هاهو.. عماد الدين زنكي وابن التونكتين وشيخي عبد القادر الجيلاني وأخي إدريس وإخوتي الإشبيليين حولي.. هل أحلم؟!!

ها أنا أسمع شيخي عبد القادر الجيلاني يقول:

«ياطاعنًا في اليأس ألقِ على نارك «سبحان الذي أسرى تبرأ»

سبحان الذي ضيق الأرض حتى صارت كسَمِّ الخياط لتكون القدس هي المأوى..

سبحان من بدّل وحشة النبي.. فكانت أرض التين والزيتون له مشكاة..

وسبحان من جعل القدس هي الحسن والجمال عند اكتظاظ القبح..»

هبّت نسمات عليلة.. تمايلت أشجار الزيتون.. وصدح عاليًا صوت الخطيب محي الدين بن الزكي يتلو قول الله تعالى ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

مكتبة نوميديا

ليالي إِشبيليَة

نردين أبو نبعة

وكان أول ما سمعته أذني في هذه الدنيا : مسكين هذا الصبي فقد أمه وأباه في يوم واحد!
حملتني القابلة وغسّلتني ولفّتني بالقماط وضمتني ضمَّة الأمِّ الأولى وعاهدت نفسها وهي التي كبرت سنُّها أن أكون آخر مولود أولد على يدها. تأملتني طويلاً وكبّرت وأذّنت في أذني، ثم أخذت تمسح بيدها على ملامح وجهي ورأسي وتقول للنسوة اللواتي توافدن على البيت المنكوب:"لقد أخذ بياض أمِّه المشرَّب بالحمرة وجبينها الواسع وزرقة عينيها.."
أمسكت القابلة بأصابع يدي الطويلة وتنبأت بطول قامتي الذي يشبه طول قامة أبي . مسَّدت على شعري وهي تلهج بالدعاء لأبي الفقيه العالم ذي الشعر الكستنائي المسترسل. الذي أخذ على عاتقه جمع كلمة المسلمين والإصلاح بينهم.

THG 0465331 UTH
ISBN 978-625-8189-41-4
9 786258 189414
مكتبة الرموز العربية
00905349183293
بورصة - تشارشمبا
Designed by @6Y4